رواية قصيرة

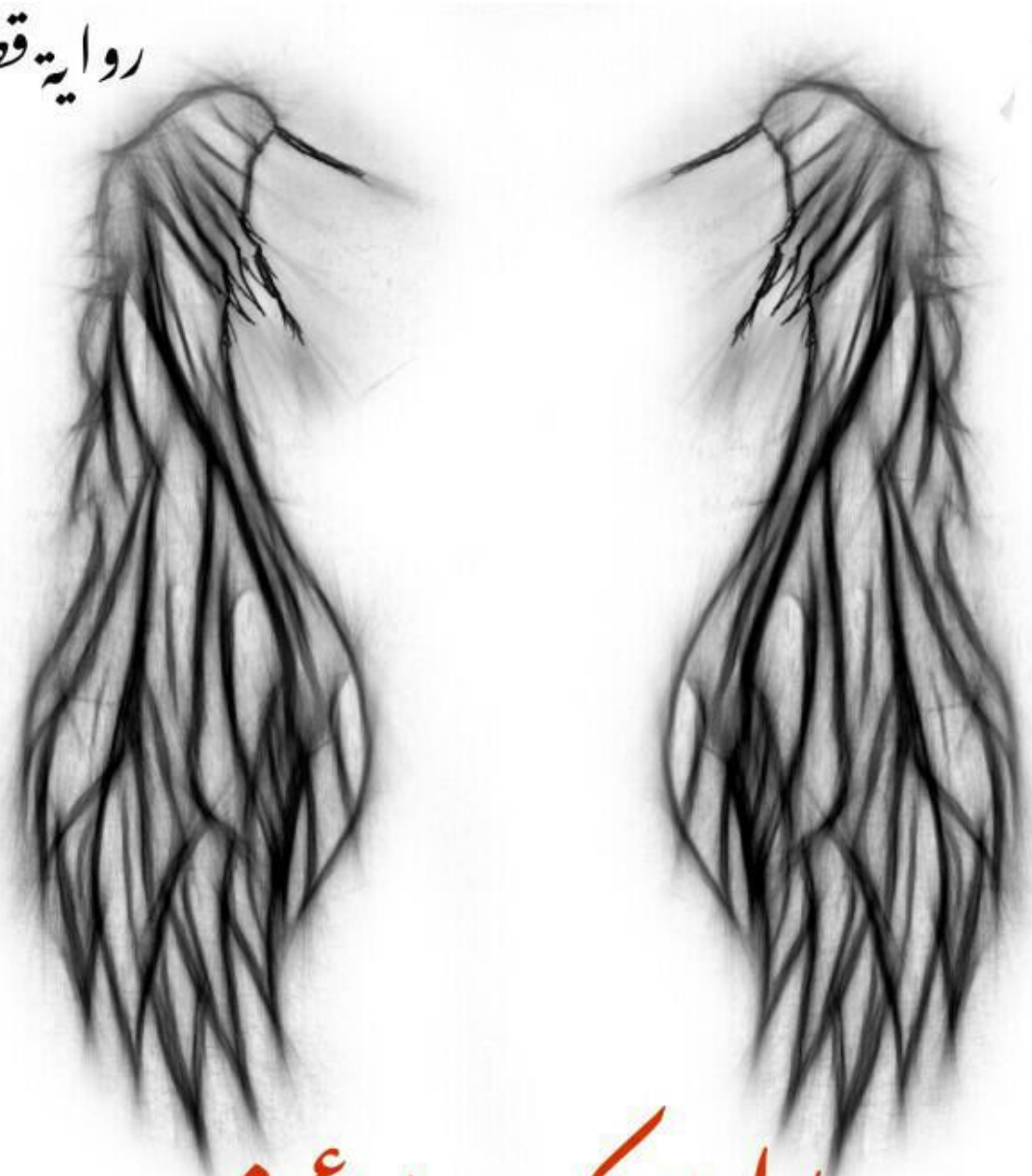

الملاك الأخير

باسم فضه

BMA

الملاك الأخير

رواية قصيرة

باسم أحمد فضه

BM A

※ باسم أحمد علي فضه.

※ الملاك الأخير.

※ أكتوبر 2023.

※ bmabasem83@gmail.com

الملاك الأخير

الإهداء:

إلى مَن تقسو عليه الحياة وليس لديه مَن يحنو عليه.

يا لتعاستنا! نتناسى ونتجاوز
أوجاعنا بأوجاعنا!

من المؤسف أن نتوقف عن الخوف من الموت!

حتى أحلامنا صارتْ تُحاكي أوجاعنا!
فإلى أين سنهرب بعد ذلك من واقعنا!؟

الملاك الأخير

الفصل الأول

<u>*حلب سنة ١٩٢٨م*</u>

كانتْ **فاطمة** ترتجف خوفاً وهي تتخيل كيف سيكون رد فعل أبيها عندما تخبره بما جرى**!** أبوها ذلك الشخص العصبي الذي دوماً ما تسبق يداه لسانه على أتفه الأسباب**!** أعطته علبة السجائر، فسألها بصوت أجش كالعادة: «لماذا تبدين قلقة**؟** وأين الباقي**؟**».

أجابته ببطء وهي تتلعثم: « صاحب..... البقـ....».

جأر في وجهها: «تحدثي بسرعة. هل قمتِ بأمر ما يستوجب العقاب حتى تتحدثين بهذه الطريقة**!؟**».

امتقع وجهها، وابتلعتْ ريقها، وأردفتْ: «صاحب البقالة.... يرفض.... إعطائي الباقي».

بنبرة حادة: «ما الذي تقولينه**!؟** لماذا يرفض إعطائكِ الباقي**!؟**».

ردّتْ وهي تُشبِك يديها خوفاً: «إنّه يدعيّ أنّه قد أعطاني الباقي، وهو لمْ يقم بذلك».

انتفختْ أوداجه قائلاً: «هل تعنين بأنّه يريد أن ينصب عليكِ**!؟**».

متطأطئة الرأس: «لا أعلم».

فقال والشرر يقدح من عينيه: «سوف أذهب وألقنه درساً يجعله يعرف ما الذي يحدث لمن يحاول العبث مع **أبو حسن**».

حاولتْ زوجته تهدئته: «أرجوكَ اهدأ يا **أبا حسن!** لا تجعل الشيطان يُعميكَ، فالمبلغ لا يستحق أن تذهب وتُحدِث مشكلة كبيرة».

دفعها بعيداً عنه وقال: «حتى لو كان الباقي لا يكفي لشراء حبة أرز فسوف أذهب وآخذه من عينيه! فالمسألة هي أنه يحاول الاحتيال علينا بكل وقاحة». واندفع خارجاً.

لم تكن **فاطمة** ووالدتها تدركان بأن ما سيحدث اليوم سيغيّر حياتهما بشكل جذري! هما يعيشان تحت وطأة رب أسرة قاسٍ خشن، القسوة التي لم يحتملها أخو **فاطمة** الأكبر منها، لذا هرب من المنزل منذ ثلاثة أعوام؛ ولم يعد. بحثتْ عنه والدته في شتّى أرجاء مدينة **حلب** دون جدوى، يبدو بأن قسوة أبيه كانتْ كافية لأن تجعله يتعدى حدود المدينة على صغر سنه. كانتْ **فاطمة** تغبط أخيها لأنه امتلك شجاعة جعلته يتحرر من خشونة وسجن أبيها، فيما هي كانتْ تعيش حلماً وحسب؛ تحلم أن يأتِ شخص ينقذها ووالدتها من حياتهما البائسة. وفي اللحظات التي كان والدها يبالغ كثيراً في قسوته عليها؛ كانتْ تدعو عليه بالموت.

وصل والدها للبقالة وهو مكشّر ومقلِّب شفتيه غضباً! وصرخ في وجه صاحب البقالة: «لماذا ترفض إعطاء ابنتي الباقي!؟».

ردّ صاحب البقالة: «لقد أخبرتُ ابنتكَ بأنني أعطيتها الباقي، وربما....».

قاطعه **أبو حسن** بنبرة عدوانية: «ابنتي لا تكذب! بما أنها قالتْ بأنكَ لمْ تُعطِها فهو كذلك».

بصوتٍ عال قال صاحب البقالة: «وأنا متأكد بأنني أعطيتها الباقي، لذا اقصر الشر وغادر محلي يا **أبا حسن**».

حاول أحد الزبائن الموجودين تهدئة الوضع: «استهدوا بالرحمن، فأنتما أبناء حيّ واحد، كم المبلغ وأنا سأقوم بدفعه، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال».

ردّ عليه **أبو حسن** وقد قطّب جبينه: «بل هو من سيدفع! فلن أسمح له بأن يحتال علينا».

بدوره ردّ صاحب البقالة بتحديّ: «لن أدفع ولن أسمح لأحد غيري بأن يدفع لكَ! يجب أن نضع حداً للبلطجة التي أنتَ عليها دوماً، فسكوتنا المتواصل عنكَ جعلكَ تعتقد أننا نخشاكَ».

جحظتْ عينا **أبو حسن** غضباً، وضم قبضته، وزمجر: «محتال ومتحدي! يبدو بأن يدي ستتلطخ بتأديب شخص حقير مثلكَ».

جأر صاحب البقالة: «جرّب أن تمد يدكَ وسوف أقطعها لكَ».

انتفختْ أوداج **أبو حسن**، وتقدم نحو صاحب البقالة ولكمه في وجهه فأطاح به على الأرض! تحسس صاحب البقالة وجهه، فوجد بأنه ينزف من فمه، فنهض

وانقض على **أبي حسن!** ولكن **أبو حسن** أوسعه ضرباً حتى أدمى وجهه تماماً، وجعله ينزف أيضاً من أنفه. شعر صاحب البقالة بالإهانة وهو يتعرض للضرب المبرح أمام الناس، وفي نفس الوقت أدرك بأنه لا فرصة لديه لعراك **أبي حسن** بالأيدي، فأخذ قارورة زجاجية ورمى بها **أبي حسن** لكنها لم تُصبه. وأخذ يبحث عن شيء آخر فلمح سكيناً وأخذها، وتوجه نحو **أبي حسن**.

في تلك اللحظة لم ينتبه **أبي حسن** بأن صاحب البقالة يحمل سكيناً، فقد كان هناك اثنان من الموجودين يمسكونه حتى لا يواصل ضربه لصاحب البقالة، فقد قام **أبو حسن** بإدماء وجهه وطرحه أرضاً عدة مرات. لاحظ شخص ثالث أن صاحب البقالة يحمل سكيناً متجهاً نحو **أبي حسن**، فتحرك بسرعة حتى يوقفه، لكنه لم يتمكن من ذلك، فقد لوح إليه صاحب البقالة بالسكين مهدداً، ووصل صاحب البقالة **لأبي حسن**، وسدد طعنة لبطن **أبي حسن!** ففزع الاثنان اللذان يمسكان **أبي حسن!** وابتعدا عنه خوفاً من أن يؤذيهما صاحب البقالة بالسكين.

لم يشعر **أبو حسن** بألم الطعنة، فقد كان منفعلاً كفاية بأن لا يشعر بالألم. بالمقابل ازداد غضبه وهو يرى الدم يخرج من بطنه! فنظر لصاحب البقالة وقد جحظتْ عينيه، وأردف يقول وقد على صوته المكان: «سوف أقتلكَ يا ابن الكلب».

كان صاحب البقالة يرتعش خوفاً مما قام به، ومن **أبي حسن** الهائج؛ لذا كان يمشي مترنحاً للوراء. انقض عليه **أبو حسن!** فما كان من صاحب البقالة إلا الدفاع عن نفسه بالسكين، وهذه المرّة أصابتْ السكين يد **أبي حسن** اليمنى، ولكنه رغم ذلك سدد لكمة بيده اليسرى لصاحب البقالة حتى أطاحه مرة أخرى أرضاً. ثم أمسك بيده اليسرى عنق صاحب البقالة وهو يصرّ على أسنانه قائلاً: «مت يا ابن العاهرة».

كان صاحب البقالة يشعر بأنه يفقد وعيه، وأن روحه تخرج من عينيه، فما كان منه إلا أن استجمع القليل من القوة في يده التي تحمل السكين، وأخذ يطعن **أبي حسن** في خاصرته، حتى أرخى **أبي حسن** يده عن رقبته، فأبعد صاحب البقالة يد **أبي حسن** عنه. وكان من السهل عليه أن يبعد جسد **أبي حسن** من فوقه؛ فقد خارت قوى **أبي حسن** بعد الطعنات التي تعرض لها.

وقف صاحب البقالة على قدميه، وكان الحاضرون لا يتحركون من هول المنظر الذي يرونه! فقد صار **أبو حسن** مرمياً على الأرض، والدماء تخر من جسده، وكان فمه فاغر من شدة الوجع! كان في وضع سيء جداً لم يسمح له حتى بالصراخ من شدة الألم!

امتقع وجه صاحب البقالة، وجسده يهتز بشكل شديد! كان يشعر بأن كل ما يجري مجرد حلم! لم يكن يريد تصديق أن حياته ستضيع إذا ما فارق **أبي حسن** الحياة. بعد أن استوعب الحاضرون ما يحدث، واستفاقوا من الذعر والذهول الذي

يجمد حركتهم، توجه اثنان منهم نحو **أبي حسن**، وسأل أحدهم: «هل أنتَ على ما يرام يا **أبا حسن؟**».

فسخط فيه الآخر قائلاً: «هل أنتَ غبي أحمق أم أعمى؟ الرجل يفارق الحياة وأنتَ تسأله سؤال كهذا».

ونظر نحو الآخرين وقال لهم بصوت مرتفع: «هيا تعالوا وساعدونا لحمله للمشفى لنلحقه قبل أن يموت».

※ ※※

بصوت باكٍ كانتْ زوجة **أبي حسن** تُعاتِب ابنتها: «كان يجدر بكِ أن تكذبي عليه فتقولين بأنكِ أضعتِ المال بدلاً من أن يذهب للتشاجر ويلقى حتفه**!** فأنتِ تعلمين بأنه شخص عصبي للغاية».

ردّتْ **فاطمة** على والدتها وهي أيضاً تبكي: «أنا اخاف منه**!** إنه يضربني على أشياء لا دخل لي فيها**!** فكيف تريدين أن أكذب وأقول أنني أضعتُ المال».

«مهما كان الضرب الذي ستتعرضين له فهو أهون مما وصلنا إليه».

بصوتٍ عالٍ قالتْ **فاطمة**: «كان من الأفضل أن أموت حتى ترتاحين**!** ولادتي في عائلة كهذه يتطلب أن أموت في أسرع وقت».

مرّتْ أربعة أيام على مقتل **أبي حسن**، وكانتْ **فاطمة** تجلس حبيسة نفسها لا تُكلِم أحد. فجاءتْ والدتها إليها: «يجب أن تأكلي جيداً، فقد صرتِ ذابلة».

أخذتْ كفيّ ابنتها ووضعتهما بين كفيها وتابعتْ كلامها: «لا تأخذي بكلامي في ذلك اليوم، فالصدمة كانتْ قوية عليَّ فلم أكن بوعيي حينها، ولا أعرف ما كنتُ أقول. فأنتِ لا تزالين صغيرة ومن حقكِ حتى أن تكذبين بحال أضعتِ المال وتقولين بأنكِ لم تُضيعيه، وكل هذا بسبب قسوة أبيكِ التي جعلتكِ تخافين منه خوفاً شديداً».

ردّتْ **فاطمة**: «ولكنني لمْ أضيع المال».

«أعلم ذلك، كل ما أريد قوله هو أنه حتى لو أضعتِ المال وكذبتي بأنكِ لم تُضيعيه فسيكون معكِ حق، وأنا يومها بسبب الفاجعة كنتُ ألومكِ بكل غباء لأنكِ لم تكذبي وتقولي له بأنكِ أضعتِ المال؛ فسامحيني يا ابنتي فأنا لم أقصد ذلك».

رفعتْ **فاطمة** رأسها ونظرتْ نحو والدتها وسألتها: «هل يجب علينا أن نحزن على وفاة أبي**!؟**».

بنظرة استغراب سألتها والدتها: «لماذا تسألين هذا**!؟**».

أسبلتْ **فاطمة** أجفانها وأردفتْ: «لقد كان دوماً يضربني ويضربكِ على أي سبب، مهما كان تافهاً، حتى أنه كان أحياناً يضربنا بدون سبب، فقط لأن مزاجه ليس جيد. لم أشعر يوماً بحنية أو محبة منه. قسوته جعلتْ أخي يهرب من المنزل، ولا نعلم أين هو الآن، هل هو حي أم ميت. دوماً شعرتُ بالخوف منه**!** لم أبتسم وهو موجود ولا مرة**!** كنا نقطع ضحكنا كلما حضر**!**».

تنهدتْ والدتها، وردّتْ: «كل ما قلتيه يهون أمام الحياة التي سنعيشها الآن وصاعداً بدون أبيكِ**!** فمع أبيكِ كنا محميين من شقاء الدنيا وذئابها**!** فقد كان يعمل لإطعامنا وإلباسنا ودفع إيجار المنزل. أما الآن فنحن مجرد أرملة لا تُجيد عمل شيء، وفتاة صغيرة لا حيل ولا قوة لها، مقطوعتان من شجرة، لا قريب نستند عليه. لقد صرنا محتاجين لكل أحد بعد أن كنا لا نحتاج لأحد، ومثلنا فريسة أكثر من مناسِبة للنفوس الخبيثة لاصطيادها وانزالها مستنقع الرذيلة».

تابعتْ والدمع ينهمر: «أسوأ شيء في الحياة أن تعيشي حياتكِ وأنتِ تُقاتلين للحفاظ على جسدكِ. وهذه هي الحياة التي سنعيشها من الآن وصاعداً يا ابنتي».

※ ※※

ذاقتْ **فاطمة** ووالدتها المرّ يومياً وهما تعملان من أجل توفير لقمة العيش وإيجار مسكنهما. تغيّرت حياتهما بشكل جذري، فقد تخلصتا من الحياة القاسية مع **أبي حسن**، وصارتا تعيشان في واقع أقسى، وأكثر بؤس ومخافة. عملتا في أعمال مختلفة أغلبهن مهينة من أجل الحفاظ على شرفهن. كانتْ والدة **فاطمة** كثيراً ما تتسول في الطرقات، ولكن هذا العمل كان بدون علم ابنتها، حتى لا تجعل ابنتها تشعر بالخجل فوق شعور الذل والمهانة اللذان تعيشانه.

في آخر الأمر استقر شغلهما على العمل في خدمة منازل الناس الأغنياء، وبسبب أمانتهما كان أصحاب هذه المنازل يتسابقون عليهما. رغم أن هذا العمل كان يجعلهما تشعران بالمهانة؛ إلا أنه وفر لهما الأمان كونه عمل متواصل، وهو أقل مشقة من بعض الأعمال التي كانتا تعملان فيها، وأكثر أمان وصيانة لشرفهما.

استقرتْ حياة **فاطمة** النفسية كثيراً، فعملهما وفر لهما لقمة عيش سهلة. ولكن لم يدم استقرارها طويلاً، بسبب وفاة والدتها**!** انفطر قلبها بوفاة والدتها**!** كان الوجع

شديداً جف بسببه الدمع من عينيها. بعد عامين من مقتل والدها مرضتْ والدتها بشكل مفاجئ ولم يستطع الأطباء تشخيص مرضها، وظلتْ طريحة الفراش لبضعة أشهر قبل أن تموت.

بموت أمها شعرتْ بأنها في مدينة شاحبة يجتاحها وباء الألم، سعادتها صارتْ في عداد الموتى، وآمالها وأحلامها في صفحة المفقودين بلا عودة. **فاطمة** شابة صغيرة وحيدة، وبهذا كان عليها بذل أكبر من جهدها حتى تحافظ على نفسها، في مجتمع سيتكالبون عليها**!** فشابة فقيرة وحيدة؛ هي هدف جيد للغاية لمغامراتهم الشهوانية.

※ ※※

<u>سنة ١٩٣٢م</u>

استمرّتْ **فاطمة** في عملها في خدمة المنازل. ولكنها بذات الوقت كانتْ تبحث عن عمل آخر، بشكل أدق كانت تحاول إيجاد مكان تتعلم فيه حرفة مناسبة، تجعلها حرّة، ولكن كان عليها أن تجمع أولاً المال الكافي لمعيشتها ودراستها لحرفة ما، وهذا سيجعلها تصبر على العمل في خدمة المنازل لوقت طويل. وذات يومٍ عندما كانتْ تستعد للنوم سمعتْ الباب يُطرَق، فذهبتْ ووضعتْ أذنها على الباب وسألتْ: «من هناكَ؟».

أجابتْ الطارقة: «إنه أنا، خالتكِ **أم أحمد**».

أم أحمد هي صديقة والدتها المقربة، وجارتهما منذ زمن بعيد. فتحتْ **فاطمة** الباب، ودلفتْ **أم أحمد**. وجلستا، وسألتها **فاطمة**: «خير يا خالة**!** ما الأمر الذي جعلكِ تأتين في هذا الوقت؟».

ردّتْ **أم أحمد**: «وهل أنا شخص غريب حتى أقتني الوقت المناسب لزيارتكِ؟».

ابتسمتْ **فاطمة:** «بالتأكيد لا، البيت بيتكِ، تزورينه متى ما تشائين. ولكنكِ نادراً ما تأتين في مثل هذا الوقت، لذا سألتكِ».

«حسناً، نعم هناك أمر مهم أريد التحدث به معكِ».

«عسى أن يكون خيراً».

ابتسمتْ **أم أحمد** ابتسامة عريضة قائلة: «إن شاء الله فيه كل الخير. لقد جاء شاب محترم إليَّ يطلب يدكِ».

فاطمة مستغربة: «لابد أنكِ تمزحين».

بنبرة جادة: «انا لا أمزح في أمور كهذه».

احمر وجه **فاطمة** خجلاً، وتساءلتْ: «كيف يعرفني؟ من هو؟».

أجابتْ **أم أحمد:** «إنه الشاب الذي يعمل في محل الخياطة، لابد وأنكِ قد لمحتيه عدة مرات؛ فالمحل قريب للغاية من هنا. لقد قال بأنه معجب بكِ منذ مدة، ولم يستطع الانتظار أكثر حتى لا يسبقه غيره إليكِ».

توترتْ **فاطمة** وهي تقول: «أعتقد أنني قد لمحته بضع مرات».

بابتسامة ماكرة قالتْ **أم أحمد**: «لماذا تبدين مرتبكة للغاية**!؟** يبدو بأنكِ لاحظتِ نظراته لكِ وصرتِ تبادلينه المشاعر».

كانتْ **فاطمة** بالفعل تلاحظ منذ مده نظراته نحوها، نظرات تختلف عن نظرات الرجال الآخرين، فنظراتهم خبيثة؛ نظرات تدعوها لتشاركهم سرير عابر. فيما نظراته تُشعرها بالراحة، بالسعادة، لأنها تشعر بأنه يرغب بها، رغبة رقيقة، لا توحش فيها.

هزتْ **فاطمة** رأسها نافيةً وقالتْ: «كلا، كلا، كل ما في الأمر أنني متفاجئة وحسب».

أخذتْ نفساً عميقاً لتهدئ من ارتباكها، واستطردتْ: «بكل الأحوال أنا لا أفكر بالزواج الآن».

«ما الذي تقولينه**!؟** في عمركِ كان لديَّ **أحمد،** ثم إن فرصة الزواج من شخص محترم صاحب حرفة قد لا تأتيكِ مرة أخرى».

وهي تحك يدها اليسرى باليمنى بسبب الخجل والارتباك سألتْ: «لماذا اختارني؟ ألا يعلم بأنني أعمل خادمة في البيوت؟».

بنبرة حماس أجابتْ **أم أحمد**: «إنه يعلم بذلك، لقد صارحته بالأمر، فأخبرني بأنه على علم بذلك، ولا يهتم لهذا الأمر، لأنه ليس ذنبكِ، وليس عيباً ما دمتِ تعملين بشرف. وأضاف بأن ما يهمه هو أخلاقكِ معه حينما تتزوجان، وبالطبع ستتوقفين عن العمل فور أن تصبحي في منزله».

هزتْ **فاطمة** رأسها قائلة: «لازلتُ أرفض فكرة الزواج في الوقت الراهن».

تنهدتْ **أم أحمد** وأردفتْ: «لن أدعكِ تُضيعين فرصة عريس كهذا**!** لقد أخبرني بأنه بعد أن تمكن من حرفة الخياطة سوف تقوم عائلته في دمشق ببيع قطعة أرض حتى يتزوج ويفتح محل خياطة هناك».

جحظتْ **فاطمة** بعينيها وهي تقول بنبرة استغراب: «هذا يعني بأنني سأنتقل معه إلى دمشق**!؟**».

ساخرة ردّتْ **أم أحمد**: «ولماذا تفاجأتِ بهذا وكأنكِ ستنتقلين للصين**!؟** دمشق لا تبعد عن حلب كثيراً، والناس هناك نفس هنا، أي أنكِ لن تشعرين بالغربة كثيراً، وستتعودين على العيش فيها بسرعة، خصوصاً وأنكِ ستعيشين برفقة شخص محترم يحبكِ».

لعدة أيام لم تتوقف **أم أحمد** عن محاولة إقناع **فاطمة**، التي صارتْ موافقة على الزواج، ولكنها كانت مترددة بشأن الانتقال من **حلب**. وفي نهاية الأمر تمكنت **أم أحمد** من طمأنتها واقناعها. وبعد بضعة أشهر سافرت معها لدمشق حتى تكون بجانبها يوم عرسها.

كان زوجها رجل محترم، عاملها كطفلته قبل أن تكون زوجته، احتواها وغمرها بالأمان، أمان لم تعشه من قبل يوماً. **فاطمة** منذ صغرها تحلم بوصول ملاك ينتشلها وأمها وأخيها من الحياة القاسية التي يعيشونها مع أبيها. رحل أخيها هرباً من ظلام والدها؛ ولم يأتِ ملاكها المنقذ. غادر والدها الحياة فزادتْ حياتها وأمها شقاء وعذاب؛ فازدادت حاجتها أكثر للملاك. اغتصّتْ روحها بالوجع لوفاة والدتها؛ ولم يصل ملاكها بعد. فأصابها اليأس ولم تعد تؤمن بمجيئه. ولكن بعد اليأس يبدو بأنه وصل**!** ربما أتى متأخراً؛ ولكنّه في الأخير جاء.

كان زوجها مستلق على ظهره فوق السرير يقرأ كتاب، اندستْ **فاطمة** بجواره، ووضعتْ رأسها على صدره، فابتسم ووضع الكتاب جانباً، وراح يمسّد شعرها بيده. حكَتْ له عن حلمها المتواصل بوصول ملاك ينزع الوجع والخيبة منها، يجعلها تُحِب الحياة. فابتسم سائلاً: «ومتى يا ترى سيصل ملاككِ هذا**!؟**».

رفعتْ رأسها من على صدره حتى قابل وجهها وجهه، وردتْ عليه بابتسامة واسعة. ثم أعادت وضع رأسها على صدره، واستطردتْ: «أمي على ضعفها وقلة حيلها كانتْ ملاكي الحارس، فحضنها كان كافي لأن أنسى به وحشة العالم، ووجع وظلم الحياة. لذا حينما ماتت شعرتُ بأن الأجرام السماوية تتساقط عليَّ**!** بموتها فقدتُ الأمان، وبعد مرور الوقت استطعتُ لملمة شتات روحي، وبصمودي تمكنتُ من إعادة بناء جدار الأمان، ولكنني وجدتُ بأن هناك جزء من هذا الأمان لن أتمكن

يوماً من إعادة بناءه مهما صرتُ قوية، ولن يتمكن أي شخص مهما يكن من بنائه؛ لأن هذا الجزء خاص بأمي، وهي الوحيدة التي بإمكانها سدّه».

وضع كفه على خدها، وقال: «سوف أعمل جاهداً لأبني لكِ هذا الجزء».

ردّتْ عليه: «هناكَ كسر غير قابل للإصلاح مهما فعلنا».

عقّب على ردّها بنبرة إصرار: «ستثبت لكِ الأيام بأنني من أجلكِ أستطيع القيام بالمستحيل».

رفعتْ رأسها، وقامتْ بالتحديق للحظات بعينيه، كأنها تتحقق من صدقه، ثم قامتْ بلثم فمه للحظات. أبعدتْ فمها عن فمه؛ فقال لها: «لماذا كل هذه العجلة!؟ أنا لم أشبع بعد أيتها البخيلة».

ابتسمتْ قائلة: «أمامنا العمر كله».

أردف سائلاً: «بالمناسبة أنتِ لم تجيبيني بعد! متى تتوقعين وصول ملاككِ الذي تنتظرين قدومه منذ صغركِ؟».

قامتْ برفع أحد حاجبيها وردّتْ: «التظاهر بالغباء خصلة أكرهها بشدة، وتؤدي في الأخير لجعلي أكره من يقوم بها».

«أعتذر بشدة سيدتي! كل شيء يهون إلا أن تفكري مجرد تفكير بكرهي».

ضحكتْ؛ فقال: «الله يديم ضحكتكِ لي طول العمر بلا انقطاع».

ثم استطرد: «لي الفخر والشرف الكبيران بأن أكون ملاككِ. وهذا يعني بأنني ثاني ملائكتكِ، أم أنني الثالث؟ أم أكثر؟».

«ما الذي تعنيه!؟.... ها، هل تقصد بأنكَ ملاكي الثاني لأن أمي هي ملاكي الأول، أجل هو كذلك. ولكن أنتَ أول ملائكتي الذين كنتُ أنتظرهم لينتشلوا أحزاني من أعماقي».

ردّ عليها بنبرة استياء: «ما الذي تقولينه!؟ أول ملائكتكِ!؟ لماذا تتحدثين بصيغة الجمع!؟ وكأن هناكَ ملائكة سيأتون إليكِ مستقبلاً!»

تابع بنبرة واثق: «أنا كل ملائكتكِ، لن تحتاجي لملائكة آخرين لانتزاع أحزانكِ؛ لأنني سأتكفل بالتهام وتمزيق كل حزن يقترب منكِ».

بدون حراك ظلتْ تنظر إليه كالبلهاء وكأنها صارتْ تمثال! فحرّك يده أمام وجهها حتى تفيق من شرودها وهو يقول: «يا أنتِ! ألا تزالين على قيد الحياة!؟».

ردّتْ عليه وهي تحدق فيه بنظرة آسرة: «أعد ما قلتَه».

«لماذا؟ ألم تكوني تسمعينني؟».

أسبلتْ أجفانها قائلة: «بلى، ولكني أريد أن أفهم أكثر».

مبتسماً: «لماذا ألم تعودي تفهمي من أول مرة؟».

بنبرة غنج: «وكيف لي أن أفهم كلامكَ من أول مرة حينما تُحدثني وعينيكَ مصوبتان نحو عينيَّ!؟».

بنبرة انبهار: «واو! إنها لحظة تاريخية حتى ينطق لسانكِ بهذا الكم من الشاعرية!».

وكزته في كتفه، وقالتْ: «أنا دوماً شاعرية رومانسية».

ضحك، ثم قال: «بكل الأحوال أكثر ما أسعدني اليوم هو معرفتي بأنني ملاككِ الحارس الذي كنتِ تنتظرينه طويلاً».

ردّتْ: «ولكنكَ لستَ ملاكي الحارس».

زمّ شفتيه قائلاً: «هل تمزحين الآن معي رداً على مزاحي معكِ».

«صدقني أنا أتحدث بشكل جاد، أنتَ لستَ ملاكي الحارس».

متسائلاً: «هل تعنين بأن كل حديثكِ السابق بأنني ملاككِ الذي كنتِ تنتظرينه كان مجرد كلام وحسب!؟».

«بالعكس لقد كان كلام أعنيه تماماً».

مستغرباً: «ما هذا اللف والدوران!؟».

ابتسمتْ قائلة: «أنتَ بالفعل الملاك الذي انتظرتُه طويلاً، ولكنكَ لستَ ملاكي الحارس، لأن ملاكي الحارس هي أمي. أنتَ ملاكي المخلّص».

سألها: «لماذا أنا الملاك المخلِّص وليس الحارس!؟».

أجابته: «لأنكَ جئتَ وخلّصتني من خوفي من الحياة، خوفي من الغد، ومن الناس».

ابتسم قائلاً: «لقد أحببتُ أنني ملاككِ المخلِّص، ولكن سأكون بجانب ذلك ملاككِ الحارس».

مبتسمة: «سوف تغضب أمي إذا أعطيتكَ لقبها، لذا يكفي أن أدعوكَ بملاكي المخلِّص».

وفي نهاية الأمر لن يبقَ ملاكها المخلِّص بجانبها طويلاً! سوف يرحل عنها سريعاً! وستعود **فاطمة** لحياة البؤس من جديد، بأعباءٍ وأحمالٍ أثقل مما كان في الماضي. ستعاني كثيراً بعده، ستتمنى الموت كثيراً.. .

الفصل الثاني

دمشق سنة ١٩٤٩م

مرّتْ ثلاث سنوات على وفاة زوج **فاطمة**، مُخلفاً لها ولدان وابنة. منذ وفاته شرعتْ بالبحث عن عمل لتوفير احتياجاتها الخاصة، وأيضاً للمساعدة في مصاريف أطفالها؛ فالمال الذي يعطيها جد الأولاد لا يكفي. ولحسن الحظ وجدتْ عمل في مجال يروقها، فهي تعمل في محل بيع كتب، تقوم فيه بترتيب الكتب، وبيعها عندما لا يكون مالك المحل موجود.

فاطمة محبة للقراءة، تعلمت القراءة منذ صغرها في بيت إحدى جاراتهم –التي تعمل مدرّسة– بخفية عن والدها، فوالدها كان متشدد في مسألة تعليم البنات، فقد كان يرفض هذه الفكرة تماماً، فمنطقه كمنطق العديد من الرجال حينها بأن المكان الوحيد للمرأة هو المطبخ؛ لذا ليس هناك حاجة لتعليمها.

بينما كانت في دوام عملها دخل عليها الحاج **محمد شريف** جد أولادها، وأعطاها المصروف الشهري الخاص بأولادها وهو يقول: «أعرف أنه ليس بالشيء الكثير، ولكن صدقيني مدخول المزرعة ليس بالكثير».

«لا عليكَ يا **عمي** فأنا أعرف الوضع جيداً، ثم إن عملي يساعد في مصاريفنا».

بنبرة أسف: «وهذا ما يجعلني أخجل من نفسي**!** أننا سمحنا لكِ بالعمل للمساعدة في توفير مصاريفكِ ومصاريف أولادنا».

هزتْ رأسها وهي تقول: «ليس هنالك ما يدعو لخجلكَ، فليس وكأن بيدكَ الكثير وتبخل علينا به».

استطرد مبتسماً: «بالمناسبة لقد أخبرتُ **عبدالكريم** و**ياسر** بأنني سأترك وصية أوصي فيها بثلث التركة لأطفالكِ، كونهم كما تعلمين ليسوا وارثين بما أن والدهم مات قبلي، وبهذا اطمئني على حق أولادكِ».

لحظتها شعرتْ براحة وطمأنينة كبيرتان**!** فهذا الأمر كان يشغل بالها منذ فترة. قالتْ مبتسمة: «الله يطول في عمركَ يا عمي».

※ ※※

كانتْ **فاطمة** ترتب الكتب في المحل الذي تعمل فيه، كان ترتيب الكتب ونفض التراب عنها أمر محبب لها، فمن حبها للمطالعة والقراءة ترى بأن الكتب بمثابة أبنائها يجب الاعتناء بهم على الدوام، والاعتناء بطفلكَ أمر يدخل السرور على قلبكَ وإن كان مرهقاً. لم تشعر يوماً أن الكتب عبارة عن حبر وورق، بل عالم آخر تعيش فيه مع أناس بمختلف الأصناف، عالم تعوض به الكثير مما لا تسطيع عيشه في عالمها.

بصوت خافت واهن يدل على أنه صار شخص طاعن في السن قال لها **أبو سالم** (مالك المحل): «ارتاحي قليلاً يا ابنتي، وتعالي اجلسي مكاني لأنني سأذهب للمنزل وأعود لاحقاً».

«رافقتكَ السلامة يا عم».

بعد مرور نصف ساعة دخل عليها رجل في الثلاثين من عمره، طويل القامة، يبدو جلياً بأنه حلق لحيته قبل قليل، وأبقى على شاربه الكث الذي بشكل غير مباشر يبدو بأنه يفتخر به؛ فأي شخص سيلاحظ أنه يُمسكه ويمسده بيده كثيراً. تأنقه في لباسه يجعل المرء يعتقد بأنه طبيب وليس نجار. سألته **فاطمة**: «كيف أستطيع مساعدة حضرتكَ؟».

ردّ وهو يمد نحوها ورقة: «هل يمكنكِ أن تقرئي لي المكتوب في هذه الورقة؟».

حملقتْ فيه للحظات، ثم أخذت الورقة وهي تقول مبتسمة: «على الرحب والسعة». وشرعتْ تقرأ المكتوب في الورقة: «لعينيكِ أكاد أجعل معنى الأُنثى خالص لكِ دون نساء العالمين». ثم نظرتْ نحوه، ولوتْ بوزها قائلة: «لو كنتَ تعرفها جيداً لما بالغتَ هكذا يا سيد **غسان**».

منذ عام ونصف بدأت **فاطمة** العمل هنا، وقد تعرفتْ على **غسان** في محل عملها، فهو شخص يحب مطالعة وقراءة الكتب بشكل مستمر. وقد أعجب بها، واعترف لها بذلك، وقد كانت مترددة كثيراً، ولكن في نهاية المطاف بادلته المشاعر، وصارا حبيبان، يتنظران الوقت المناسب للارتباط بشكل رسمي.

جلس مقابلها وردّ عليها: «بل لأنني صرتُ أعرفها جيداً فأعلم جيداً بأنني لم أبالغ، بل أرى أنني مُقصِّر».

أسبلتْ أجفانها قائلة: «أنتَ بالكاد تعرفني منذ مدة قصيرة».

مط شفتيه وهو يُردف: «إنني أعرفكِ منذ أكثر من عام، وهذه مدة كافية لأتأكد بأنني سأكون أكثر شخص محظوظ في العالم عندما تكونين لي».

أطلقت تنهيدة عميقة، وقالتْ: «لديّ جروح في القلب قد لا تمكنني من منحكَ السعادة التي تتوقعها».

شاخص العينين: «وما فائدتي إذن**!؟** سوف أعمل جاهداً على ترميم روحكِ وقلبكِ، وكوني على ثقة بأنني سأنجح في ذلك».

باتت **فاطمة** تخاف من السعادة أكثر من التعاسة، فمنذ صغرها قد اعتادتْ على البؤس والشقاء والحزن. بالمقابل عاشتْ لحظات سعيدة قليلة؛ وما لبثتْ أن تغادرها هذه السعادة بسرعة، فتصاب بالخيبة كثيراً، لذا صارت تخشى أن تأمل حتى لا تخيب، فالخيبة بالنسبة لها أشد كسر للنفس من التعاسة. عاشتْ مع زوجها الأول أجمل فترات حياتها، ولكنه غادرها فجأة تاركاً إياها للخيبة، عائدة لحياة البؤس والشقاء. وهي واثقة أن حياتها ستكون رائعة مع **غسان** كما كانتْ مع زوجها الأول، وربما أروع، وهذا ما يجعلها تتوجس من اكتمال هذه العلاقة بالزواج**!** فهي تخشى أن يرحل عنها، تاركاً إياها للخيبة مجدداً.

سألته بنبرة جادة: «بالمناسبة لم أسألكَ من قبل، ما الذي جعلكَ تنجذب إليَّ**؟**».

أسند ذقنه بكفيه مُجيباً: «لقد أحببتُ عقلكِ، وثقافتكِ. وأنتِ في عيني جميلة».

رفعتْ حاجبها الأيسر دلالة على الاستياء، وقالتْ متبرّمة: «أنا في عينكَ جميلة**!؟**».

فاستدركَ قائلاً بعد أن أطلق ضحكة صغيرة وأبعد ذقنه عن يديه: «أنتِ دوماً هكذا مستعجلة**!** لا تتركين لي مجالاً لإكمال كلامي، فأنا كنتُ سأقول أيضاً: وكل هذا لا يعني بأنكِ لستِ فعلاً جميلة في أعين الناس».

مبتسمة: «لا داع للترقيع، ففعلاً لقد أكل كلاً من الوجع والعمر النظارة والجمال».

عارضها بشدّة: «ما هذا الهراء**؟** عن أي عمر تتحدثين وكأنكِ قد تجاوزتِ الستين**؟** أنتِ في أوج الشباب. ثم إنكِ حتى بعد عشرين عاماً ستبقين جميلة، وسأُنهِك نفسي وأنا أغار وأضرب كل رجل يحاول التغزل بكِ».

مبتسمة من الأذن للأذن: «أشكركَ على مجاملتكَ اللطيفة».

رمقها بنظرة آسرة وهو يقول بنبرة كلها ثقة: «إنني أقول الحقيقة، لتراهنيني على ذلك، وكوني متأكدة بأنني سأكسب الرهان».

توقف ليأخذ نفساً، وتابع: «أعلم بأنه ليس من السهل نسيان رجل مثل زوجكِ المرحوم، فقد كان يعاملك جيداً وبكل ود كما قلتِ؛ ولكن هذه هي سنة الحياة لن تتوقف الحياة بموت أحدهم مهما كان، لذا يجب أن نعيشها حتى لا نكون مجرد أحياء موتى».

كان كلام **غسان** كافٍ لأن تنسى **فاطمة** التعب والمشقة التي تعيشها، تشعر بأن الله أرسله إليها ليكافئها على صمودها وهي تكافح منذ صغرها عدم الوقوع في مستنقع الرذيلة بحجة أنها امرأة وحيدة لا معيل لها.

أضاف **غسان**: «ثم لقد مرّ ثلاثة أعوام على وفاته، أي أنكِ قد احترمته بشكل كافٍ بعدم ارتباطكِ بأحد تقديراً للود والحب الذي كان بينكما. وصدقيني لو كان يستطيع الكلام لأخبركِ بأن تعيشي حياتكِ مع شخص آخر بأسرع قت».

لحظتها رمقته بنظرة حيرة، وتساءلتْ: «لو كان زوجي المتوفي يعاملني بقسوة وكرّهني في الحياة؛ هل هذا يعني بأنه فور أن تنتهي شهور العدة لا بأس أن أتزوج غيره؟».

«زوج كهذا لا بأس أن تتزوجي عليه وهو لا يزال علي قيد الحياة» وأتبع كلامه بقهقهة، وبادلته **فاطمة** ذلك بابتسامة عريضة.

عقّب **غسان**: «ولكن أتعلمين المشكلة في الزوج السيء أنه قد يجعل المرأة تكره جميع الرجال، يسبب لها عقدة منهم. لذا برأيي أن ارتباط امرأة برجل آخر بعد علاقة سيئة تحتاج وقت أطول».

استدركتْ **فاطمة** مسألة أن جد أولادها أخبرها بأنه سيكتب ثلث تركته باسم أولادها، فأخبرتْ **غسان** بذلك. فعلّق **غسان**: «وأنا أقول ما سرّ الراحة الجلية على وجهكِ اليوم؟».

«أجل، إنني أشعر براحة نفسية كبيرة، فقد كانت هذه المسألة تؤرقني منذ وفاة والدهم».

أردف **غسان** مبتسماً: «بما أنكِ الآن اطمأننتِ على حق أولادكِ؛ فأرى بأنه الوقت المناسب لأن آتِ وأخطبكِ، أو بالأحرى أتزوجكِ فلا داع لإضاعة الوقت في الخطبة».

سألته: «هل أنتَ متأكد بأن عائلتكَ لن تعترض على زواجكَ من امرأة تكبركَ؟».

كانتْ هذه المسألة تقلق **فاطمة**، وهو رفض عائلة **غسان** أن يتزوج بها، فقد صارتْ متعلقة للغاية به، ولا تتخيل حياتها بدونه، فمعه تشعر بالحُبّ، والأمان،

وأهم ما تشعر به معه الاحترام؛ فالاحترام فوق كل شيء في أي علاقة كانتْ حباً أو صداقة أو أي علاقة أخرى.

أجاب: «أولاً مسألة زواجي أمر يخصني وحدي، ثم لا بأس حتى أتجنب وجع الرأس بالجدال في مسألة العمر بأن أكذب عليهم بأنني أكبر منكِ».

«وأنتَ لماذا تقبل بأن تتزوج امرأة تكبركَ؟ فمجتمعنا فيه الرجل يريد الزواج بامرأة تصغره، وأغلبهم يريدها أن يكون عمرها أقل من سبعة عشر عاماً».

ردّ بنبرة ساخرة: «هم بهذا يعتقدون بأنهم سيسيطرون أكثر على زوجاتهم، وسيربونهن كيف ما شاءوا».

في المجتمعات الأقل تحضراً، أو لنقل الأقل تثقفاً لديهم هذه العقلية، وهي أن الأم تختار لابنها زوجة صغيرة؛ لأنها برأيها لا زلت عجينة سيشكلها كما يشاء، ستكون كما يربيها. بالإضافة إلى تفكير الرجال بأن الزواج بامرأة صغيرة يضمن لهم الاستمتاع بها لوقت أطول؛ لأنهم سيقضون معها أطول وقت من شبابها قبل أن تشيخ.

«ولماذا أنتَ لستَ مثلهم؟ ألا ترى أنه من الجيد أن تربي زوجتكَ على كيفكَ؟».

«لأنني لستُ مثل عقليتهم، أرى بأن تفكيرهم هذا شيء مصطنع ليس حقيقي، ليس أمر مضمون لحياة سعيدة».

أضاف وهو يقرّب وجهه نحوها مبتسماً: «وفي نهاية الأمر أكبر سبب أنتِ! أنتِ جعلتني أتوقف عن التفكير بجميع نساء العالم صغيرها وكبيرها».

سرتْ رعشة في جسدها لشدة سعادتها. ابتسمتْ قائلة: «لسانكَ هذا يدل أنكَ قد علّقتَ بكَ العديد من النساء، لذا أنا محتارة لا أعرف الأمر الذي أملكه وتطمع به؛ بما أنني لا أملك المال أو الجمال الفتّان. أم ربما هذه بالنسبة لكَ تجربة جديدة أن توقِع في حبكَ امرأة عادية لا تملك شيء!؟».

ردّ مبتسماً: «بما أنكِ لا تملكين شيء؛ فهذا يعني بأنكِ لن تخسري شيء، لذا لا داع للخوف من تجربة الأمر».

شاخصة العينين: «ولكن ربما أُصاب بالخيبة! وهذه من الخسائر الكبيرة الموجعة».

وافقها: «أجل، بل إنها أكبر الخسائر، وموجعة للغاية خصوصاً لشخص لا يملك شيء».

استطردتْ: «ومسألة الأولاد؟ كيف سيقبل والداكَ أن تتزوج من امرأة لديها ثلاثة أطفال؟».

تنهد بعمق، وقال بنبرة توبيخ: «لا تشغلي بالك بتفاصيل كهذه، هذه أمور تخصني وأعرف جيداً كيف أتعامل معها. كل ما عليكِ هو الإسراع بإخباري بأنكِ صرتِ مستعدة للزواج».

أردفتْ: «عندما أضمن حق أولادي تماماً في الميراث تأكد بأنني بنفسي سآتي لأخطبكَ».

علّق مبتسماً: «يجب أن يكون هذا قريب، لأنني لم أعد أُطيق الانتظار أكثر».

أضاف سائلاً: «بالمناسبة أين تتركين أطفالكِ عندما تكونين في أوقات عملكِ هنا؟».

«ابني الكبير **محمد**، والأصغر منه **عبدالكريم** يقعدان مع جدهما. أما ابنتي الصغرى **فايزة** فأتركها مع جارتي».

فجأة غيّرتْ **فاطمة** الموضوع طارحة عليه سؤال: «هل ستبقَ دوماً داعماً لي؟».

دوماً تخشى **فاطمة** أن تتعشم بشيء ثم لا يبقَ، خصوصاً لو كان هذا الشيء يمثل الدعم والأمان التي تتمناه أي امرأة مثلها مقطوعة من شجرة، لا رجل قريب تستند إليه إن تخلى عنها حبيب.

أسبل أجفانه مُجيباً: «كوني على ثقة بأنني سأظل أدعمكِ في أي قرار تتخذينه بشرط أنه لن يؤذيكِ ويسبب لكِ الألم».

مبتسمة: «كلامكَ.....».

ولكنها قطعتْ كلامها بسبب عودة **أبو سالم** مالك المحل فجأة، فارتبكتْ **فاطمة!** فلا ينقصها أن ينتشر بين الناس أنها بعلاقة مع رجل، فألسنة الناس تتلذذ في خوض الأحاديث عن امرأة أرملة أو مطلقة خصوصاً لو كان الحديث يتضمن أمور جنسية، وإشاعة تتعلق بالجنس كافية للقضاء على حياة المرأة في مجتمع كهذا.

حتى لا يشك صاحب المحل سألتْ **غسان**: «ما الكتاب الذي تريده حضرتكَ؟».

ارتسمتْ على **غسان** ابتسامة عريضة وهو يرى وجهها صار كالطماطم من الخجل والارتباك، وردّ: «أريد رواية على ذوقكِ».

فأعطته رواية كانت موضوعة بجوارها، فنظر للغلاف وقرأ العنوان: «الليالي البيضاء».

«إنها رواية خفيفة قصيرة».

همس لها سائلاً: «هل هي رواية جيدة؟ أم أن ارتباككِ جعلكِ تختارين بشكل عشوائي أقرب رواية وقعتْ عليها عينيكِ؟».

أجابته هامسة أيضاً: «صحيح أنني اخترتها لأنها كانتْ موضوعة بجواري، ولكنني قرأتها من قبل ووجدتها رواية جميلة».

※ ※※

سنة ١٩٥٠م

مات **محمد شريف** جد أولاد **فاطمة**، وكان قبل عدة أشهر قد كتب وصية أوصى فيها بثلث تركته لأولادها، وأعطى الوصية **لفاطمة** حتى تحتفظ بها. بعد مرور شهرين على وفاته ذهبت **فاطمة** إلى عم أولادها **عبدالكريم** وأخبرته بأمر الوصية، لأنها تريد بأسرع وقت ضمان حق أولادها، فهذا الأمر يؤرقها منذ وقت طويل. ومن جهة أخرى تريد الإسراع بالزواج من **غسان**؛ فهذا الأمر هو الذي يؤخر زواجهما.

ردّ عليها **عبدالكريم**: «لقد أخبرني أبي بأمر الوصية، وبالطبع لم أعارضه أبداً، لأن أولاد أخي هم مثل عيالي، وكنتُ سأعطيهم بنفسي نصيب أبيهم بحال لم يكتب لهم أبي وصية».

تنفستْ الصعداء لأنها ستأخذ حق أولادها بطيب خاطر، وقالتْ مبتسمة: «وهذا عشمي فيكَ».

استطرد **عبدالكريم** وهو يحك رأسه: «بالمناسبة منذ مدة لديَّ فكرة مشروع في **بيروت** سنأكل منه ذهب، فما رأيكِ أن نبيع تركة والدي، المتمثلة في المنزل والمزرعة، من أجل المشروع، ويعم الخير على الجميع».

ردّتْ عليه: «أُفضل أن نبيع التركة ويأخذ كل واحد نصيبه، وبنصيب أبنائي سأشتري لهم منزلاً وأكتبه باسمهم. وبإمكانكَ أنتَ أن تقيم مشروعكَ».

«نصيبي وحدي لا يكفي لإقامة المشروع، ولكن لا بأس بما أنكِ لا تريدين ذلك، سوف أحاول إقناع أخي **ياسر** بأن يدخل بنصيبه معي في المشروع».

توجه **عبدالكريم** إلى أخيه **ياسر** وأخبره بالأمر، فسأله **ياسر**: «هل أنتَ متأكد بأن المشروع مضمون الربح؟».

ردّ بكل حماس وثقة: «بالتأكيد».

«وسوف أسافر معكَ؟».

«ما رأيكَ؟ بالطبع سوف تسافر معي حتى تساعدني، حتى زوجتي ستسافر معنا».

«حسناً إذن».

※ ※※

كانتْ **فاطمة** في محل بيع الكتب الذي تعمل فيه، وإذ **بغسان** يدخل عليها، ويمد نحوها ورقة وهو يقول: «هل بإمكان حضرتكِ أن تقرئي لي فحوى هذه الورقة؟**».**

كان هذا الطقس من أجمل الأشياء التي يبعث السعادة على قلب **فاطمة،** وقد صارحتْ **غسان** بذلك، لذا حرص أن يقوم به كلما سنح له وقته.

ردّتْ وهي تبتسم: «في خدمة حضرتكَ دائماً»، وقرأت المكتوب في الورقة: «اشتقتُ لكِ لدرجة أن قلبي يكاد يُضْرِب عن الخفقان».

ثم أردفتْ: «وكأنكَ لم تراني منذ سنة حتى يتوقف قلبكَ من شدة الشوق**!** إنه فقط أسبوع لم نرَ فيه بعضنا».

لوى بوزه، ووبخها قائلاً: «هل وظيفتكِ تخريب أي لحظة رومانسية**!؟** فبدلاً من أن تُبدي انبهاركِ وسعادتكِ بالكتابة الرومانسية التي أكتبها من أجلكِ؛ تقومين بالتدقيق بتفاصيل لا داع لها**!** ثم إن أسبوع فترة طويلة بالنسبة لي».

ضحكتْ ضحكة صغيرة، وأردفتْ: «أعتذر كثيراً عن ردة فعلي، وبالفعل عبارتكَ الغزلية هذه المرة مختلفة ورائعة عن سابقاتها».

ردّ بنبرة ساخرة: «مختلفة عن سابقاتها**!؟** هذه العبارة ليستْ أول مرة أقدمها لكِ**!** فقد قدمتها لكِ منذ حوالي شهرين، وأعطيتها لكِ اليوم مرة أخرى لأختبركِ، وقد فشلتِ**!** يبدو بأنكِ لا تهتمين بأي شيء أقدمه لكِ».

شعرتْ بالحرج، لذا حاولتْ الدفاع عن نفسها: «صدقني الأمر وما فيه أن فكري المشغول بضمان حق أولادي في تركة جدهم يجعلني أنسى كثيراً هذه ....».

قاطعها: «لا داع للتبرير! حسناً سأعتبر أن ذاكرتكِ في الحضيض، وليس أنكِ تقومين بهذا عن عمد حتى تجعليني أكرهكِ وأبتعد عنكِ».

ردّتْ باستهجان: «أقوم بهذا حتى أجعلكَ تكرهني!؟ بالنسبة لي ما أراه هو أنكَ اشتقتَ للشجار على مثل هذه الأمور، وأنا ليس لديَّ مزاج لذلك، لذا ارجع في وقت لاحق يكون مناسباً لكلينا للتشاجر».

قال وهو يقوم بحك صدغه: «يبدو فعلاً بأن الامور صارتْ محمومة وستؤول للشجار، وأنا بدوري ليس لديَّ مزاج لذلك، لأن غداً هو عيد ميلادي».

متعجبة: «واو! لقد مر بالفعل عام بسرعة! كل عام وأنت سعيد وبصحة وعافية».

رفع حاجبه الأيسر قائلاً: «التهنئة الكلامية لا تناسبني، أريد تهنئة مادية».

«تريد هدية؟».

«أجل».

«وما نوع الهدية التي تريدها؟».

«أي هدية المهم أن تكون مادية ملموسة».

تابع بنبرة خبيثة: «كأن تعطيني قُبلة مثلاً».

رمقته بشرر! فابتسم قائلاً: «أنا أعطيتكِ مثالاً وحسب عن الهدية المادية».

علّقتْ ساخرة: «وكأنني لا أعلم ماذا تعني الهدية المادية! وحتى إن كنتُ غبية للغاية لا افهم، ألم تجد سوى هذا المثال البذيء لتعطيه؟».

قهقه، وقال: «ما تصفينه بالبذاءة سيكون أطهر شيء بالنسبة لكِ مقارنة بالأشياء الأخرى التي سنقوم بها».

احمرّتْ أذنيها خجلاً ووكزته في صدره قائلة: «لتتوقف عن لقائي إن كنتَ ستقول مثل هذا الكلام».

مبتسماً: « حسناً دعينا من هذا، ولنرى ما الهدية التي ستعطيني إياها».

ذهبت نحو أحد رفوف المكتبة، وعادتْ إليه بكتاب، وأعطته إليه وهي تقول: «هذه الأشياء التي أعشقها، لذا أهديكَ إياها».

سألها: «هذه رواية؟ أم كتاب من نوعٍ آخر؟».

أجابتْ: «إنها رواية».

«هل أعجبتكِ هذه الرواية؟».

«في الحقيقة أنا لم أقرأها بعد، لذا أريدكَ أن تخبرني برأيكَ فيها وتنصحني بقراءتها إذا وجدتها جيدة، ولكن كما سمعتُ فهي رواية مشهورة».

لوى بوزه قائلاً: «ها! يعني هدية بمقابل خدمة إعطائكِ رأيي بها كي لا تُضيعي بعض وقتكِ الثمين في قراءتها إذا لم تكن رائعة، أي هدية هذه؟».

مبتسمة: «لا بأس بذلك».

أردف قائلاً: «أتمنى أن تكون جميلة مثل رواية الليالي البيضاء».

«لقد مر وقت طويل منذ أن أعطيتها لكَ».

«أجل، ولكن لم يتسنى لي قرأتها إلا منذ بضعة أيام وحسب».

متحمسة: «من الجيد بأنها أعجبتكَ، فهذا يعني بأن ذوقنا في القراءة متشابه، وهذا تشابه يسعدني أن أشترك فيه مع من سأشاركه حياته. أخبرني ما أكثر شيء شدكَ فيها؟».

أجاب: «الخيبة التي بها، صحيح أن الكاتب كان قاسٍ على بطله، ولكن أي نهاية أخرى كانت ستجعل الرواية ضعيفة الحبكة».

علّقتْ **فاطمة**: «بعكسكَ أنا لم تروقني الخيبة في النهاية، كنتُ أفضل عدم وقوعها حتى لو جعلتْ الرواية أضعف، ربما لأنني عشتُ ما يكفي من الخيبات لأبغض أي خيبة أراها حتى لو كانت في رواية».

شاخص العينين: «بالنسبة لي هذه الخيبة مهما كانتْ قاسية فقد أعجبتني كثيراً كحبكة».

قوّستْ حاجبيها قائلة: «أرجو بأن لا تطبق إعجابكَ بها عليَّ».

بنظرة تساؤل: «ماذا تعنين بذلك؟».

ردّتْ: «كأن تعود لحبيبتكَ السابقة وتتركني».

ردّ مبتسماً: «لا تقلقي فمن يقع في حبكِ ينسى كل أحبائه السابقين للأبد».

استطرد سائلاً: «بالمناسبة لم تخبريني من قبل عن تاريخ عيد ميلادكِ؟ وما هي أجمل هدية تم إعطائكِ إياها بهذه المناسبة؟».

ردّتْ بابتسامة ساخرة: «لم أولد في عائلة لديها من الرفاهية الكافية لتوثيق تاريخ مولدي، ناهيكَ عن الاحتفال به وتلقي الهدايا».

«لا بأس، سنختلق لكِ تاريخ ميلاد».

※ ※※

كانتْ **فاطمة** منزعجة لأنها أضاعتْ مفاتيحها، لأنه سيترتب على ذلك أن تقوم كسر كل أقفالها، وشراء أقفال جديدة. وصلتْ المنزل وحالما رأتْ **أسماء (**زوجة **عبدالكريم)** سألتها وهي تتمنى أن تتلقى الإجابة التي تريدها: «هل رأيتِ مفاتيحي؟ لا أتذكر أين وضعتهن**!**».

أجابتْ **أسماء**: «أجل، لقد وجدتهن في الحمام، وأيضاً لقد كان باب غرفتكِ مفتوح، وقد قمتُ بإغلاقه لأجلكَ».

تنفستْ **فاطمة** الصعداء، وقالتْ: «شكراً لكَ».

أعطتْ **أسماء** المفاتيح **لفاطمة،** ثم أردفتْ: «لأكون أمينة فلقد دخلتُ غرفتكِ، وهذا من أجل استعارة أحمر الشفاه ذو اللون الأرجواني، ولكنني بحثتُ في المكان الذي تضعيهن فيه عادةً ولم أجده».

«ذو اللون الأرجواني؟».

سكتتْ للحظات تفكر: «أجل لقد تذكرتُ، لقد ضاع مني في عرس ابنة الجزار الشهر الماضي».

زمتْ **أسماء** شفتيها: «خسارة**!** لقد أعجبني أحمر الشفاه ذلك، وكنتُ أود وضعه لأنني سأحضر غداً خطبة إحدى صديقاتي».

«لديّ أحمر شفاه جديد سوف يعجبكِ، سوف أدخل الغرفة وأعطيكِ إياه».

وقبل أن تدخل **فاطمة** لغرفتها، سمعتْ صوت **عبدالكريم** يناديها: «**فاطمة!** هل لديكِ بعض الوقت؟ أريد التحدث معكِ في موضوع ما».

«بكل تأكيد».

ذهبتْ إليه: «خير إن شاء الله؟».

ردّ **عبدالكريم**: «بصراحة أريد أن أطلب منكِ معروفاً».

«من عيني إذا كان بمقدوري».

كان يتمنى أن لا ترفض طلبه، فهي آخر حلوله. أخذ نفساً عميقاً، ثم قال: «لقد أخبرتُكِ مسبقاً بالمشروع الذي أريد القيام به في **بيروت،** وقد وافق أخي **ياسر** على أن يضع نصيبه من الورث مع نصيبي من أجل هذا المشروع، ولكن للأسف بعد أن

حسبنا نصيبنا وجدنا بأنه لا يكفي من أجل المشروع. لذا ما رأيكِ بأن آخذ نصيب أبناء أخي ويصيروا شركاء معي في المشروع، وصدقيني المشروع مضمون النجاح، وسنكسب منه الكثير».

ردّتْ عليه وهي محرجة: «اعذرني يا **عبدالكريم** فقد أخبرتكَ من قبل أنني أفضل شراء منزل صغير وقطعة أرض نزرع فيها، أما المشاريع فحتى لو كنتَ متأكد من نجاحها فهناك احتمال ولو ضئيل بالخسارة، وأنا لا أرغب في خوض المغامرات بكل المال الذي أملكه».

تنهد، وأردف: «حسناً، ما رأيكِ أن آخذ نصيبهم كدين عليَّ، وسوف أسدده بأسرع وقت، وسأكتب ورقة لكِ بالدين إن أردتِ أن تضمني حقهم».

«المسألة ليس أنني لا أثق بكَ حتى تكتب ورقة بالدين، ولكنني لا أثق تماماً بأي مشروع خصوصاً أنكَ ستدخل بكل ما نملك، فلو لا سمح الله خسرتَ كيف ستعيد الدين لنا؟».

بدأ صبره ينفد! وبنبرة توحي بالغضب: «أنا لم أعارض أبي عندما قال بأنه سيكتب لأولادكِ ثلث التركة، لذا يجب ان تردي المعروف بتسليفي نصيبهم، لأن هذا المشروع فرصة لا تعوض، وسيجعل مستقبلنا بعيداً عن خطر الفقر والحياة الشاقة».

بدورها تنهدتْ **فاطمة** قائلة: «اعذرني **عبدالكريم** ولكن ما فعلتَه ليس معروف يجب علينا رده، فالمال مال عمي الله يرحمه، ومن حقه أن يوصي لمن يشاء بـ....».

قاطعها متبرّماً وقد رفع صوته: «المال مال أبناء أخي! وأنا أكثر شخص سيهتم لمصلحتهم، أما أنتِ فنهايتكِ ستتزوجين وتنسينهم».

قامتْ برفع صوتها قليلاً وهي ترد عليه: «التزم حدودكَ ولا ترفع صوتكَ! ولتكن واثقاً بأنه ليس بمقدور أي مخلوق أن ينسيني أولادي. وإلى هنا ينتهي حديثنا».

وغادرتْ المكان. وجاءتْ **أسماء** لتهدئة زوجها قائلة: «هون عليكَ فأنا وأنتَ كنا متوقعين بأنها سترفض».

ردّ وهو يتنفس سريعاً بسبب الغضب: «المشروع هذا يا امرأة سيقلب حياتنا من حياة الشقاء والتعب لحياة الرفاهية، وأنا متأكد من نجاحه، وأريد أن ينعم اولاد أخي بذلك، وهي برفضها ستضيع الفرصة علينا جميعاً».

وضعتْ كفيها على خديه وقالتْ بنبرة مكر: «بيدي طريقة تجعلكَ تنفذ مشروعكَ! ولكن لا أعلم إن كنتَ ستوافق عليها؟».

※ ※※

لم يصدّق **عبدالكريم** نفسه وهو يمسك وصية والده في يده**!** وبعد التحقق والتأكد بأنها فعلاً الوصية الحقيقية نظر لزوجته **أسماء** وسألها: «كيف حصلتِ عليها؟».

أجابته: «لقد نسيتْ **فاطمة** غرفتها مفتوحة، وكنتُ أريد استعارة أحمر الشفاه الذي تملكه، فدخلتُ غرفتها ولم أجده لذا هممتُ بالخروج، وقبل أن أخرج لمحتُ الصندوق الذي تضع فيه الوصية، فـ.....».

قاطعها سائلاً: «وكيف علمتِ منذ البداية بأن الوصية في الصندوق؟».

ردّتْ: «قبل حوالي شهر كنتُ معها في غرفتها، فأرتني الوصية، ورأيتها تضعها في الصندوق، وترفع الصندوق فوق خزانة الملابس. المهم أنني فكرتُ لحظتها بأنه إذا أخذنا الوصية وتخلصنا منها؛ فإنه لن يعود لأولاد أخيكَ نصيب في الميراث بما أن والدهم مات قبل جدهم، لذا لا يوجد لهم أي شيء مما تركه جدهم. وبهذه تصير التركة كلها لكَ ولأخيكَ **ياسر**، وبهذا بإمكاننا السفر **لبيروت** من أجل القيام بالمشروع الذي تتحدث عنه، لأنني كنتُ شبه واثقة بأنها لن تعطيكَ نصيب أولادها من أجل المشروع؛ سواء بأن يصبحوا شركاء معكَ أو كدين عليكَ».

لم يستوعب **عبدالكريم** الخبث والمكر اللذان تظهره زوجته أمامه**!** كأنه أمام امرأة أخرى لا يعرفها**!** قوّس حاجبيه غضباً وقال: «هل تعلمين أنكِ صرتِ سارقة**!** والأفظع من ذلك أنكِ تريدين أن أقوم بسرقة مال أبناء أخي**!**».

أخذتْ نفساً عميقاً ثم أردفتْ: «اهدأ يا قلبي**!** من قال لكَ بأننا سنسرق حقهم لا سمح الله، نحن سنستعيره وحسب».

«ماذا تقصدين؟».

«أنتَ قلتَ بأن المشروع مضمون الربح الوفير، أليس كذلك؟».

أومأ برأسه بمعني أجل. فتابعتْ: «حسناً، ستقوم بالمشروع وتنتشلنا من حياة الفقر والشقاء التي نعيشها، ونضمن أن يعيش أولادنا مستقبل مريح ولا يعانوا مثل ما عانينا. وفي الأخير سوف تعيد لأولاد أخيكَ حقهم وزيادة».

رفض **عبدالكريم** الفكرة جملة وتفصيلاً، فحتى لو كان المشروع فرصة لا تعوض، فلا يقبل عقله بأن يأخذ حق أولاد أخيه اليتامى بالخداع والسرقة.

«كلا، نحن هكذا سنأخذ حقهم ظلماً وبهتاناً! لأننا سنأخذه بالاحتيال حتى لو أعدناه لهم مستقبلاً».

لجأتْ **أسماء** لأسلوب المكر والخباثة لإقناعه، لأنها لم تعد تتحمل الشقاء والتعب الذي تعيشه، حتى أنها و**عبدالكريم** يؤجلان موضوع إنجاب الأطفال حتى يستقر وضعهم المادي، وهي تتوق بأن تصير في أسرع وقت أمّاً، فقالتْ له: «بل إنكَ ستؤجر كثيراً على ذلك».

مستغرباً سأل: «وكيف ذلك!؟».

أجابتْ: «لأنكَ بهذا ستضمن حقهم إلى حين يصيروا كباراً، فبيني وبينكَ لقد أخبرتني **فاطمة** منذ مدة بأن هناكَ رجل يحبها وتحبه، وتنتظر الوقت المناسب للارتباط به، لذا....».

قاطعها وقد قطب جبينه غضباً بصوتٍ مرتفع: «عن أي رجل تتحدثين!؟».

وضعتْ يديها على كتفيه لتهدئته، وقالتْ: « اخفض صوتكَ، لا يذهب تفكيركَ بعيداً، ليس بينهم أي شيء لا سمح الله، إنه مجرد زبون مثقف يحب شراء الكتب، رآها في محل الكتب الذي تعمل فيه، فأعجب بها وطلب يدها للزواج، وهي فقط أخبرته بأنها ليست مستعدة بعد للزواج».

أبعدتْ عنه يديها وتابعتْ: «أنا واثقة بأن **فاطمة** تهتم لمستقبل أبنائها بشدة؛ لذا هي خائفة أن يفشل مشروعكَ وبهذا لن يبق لأولادها الأيتام أي شيء يستندون عليه؛ لذا ترفض إعطائكَ نصيبهم، ولكن أنا لا أثق بالرجل الذي سيتزوجها، فربما بعد الزواج يحتال عليها بأخذ مال أولادها، ويتخلى عنها، خصوصاً وأن حالته المادية ليستْ جيدة. لذا بما أنكَ واثق بأن مشروعكَ سينجح وستعيد لأبناء أخيكَ حقهم مستقبلاً، فأنتَ بهذا تحافظ على حقهم حتى يصيروا بالغين بإمكانهم التصرف بعقل في مالهم، وهكذا تكون بالفعل تفعل خيراً تؤجر عليه حتى لو كانت **فاطمة** وغيرها يرون بأنكَ تسرق حق أولادها، لأن في النهاية نيتكَ خيراً لهم، لمستقبلهم».

※ ※※

كان القلق جلياً على **فاطمة!** لذا كانت شاردة الذهن تفكر، فهي لم تجد الوصية في المكان الذي تضعها فيه! وقد فتشتْ غرفتها ولم تجدها، لذا تشعر بالذعر بحال أنها أضاعتها خارج المنزل. لاحظ **غسان** علامات القلق الشديد عليها فسألها: «ما الذي يجري معكِ؟ وكأن السماء انطبقتْ على الأرض؟».

أجابته: «لقد طلب مني **عبدالكريم** أن أذهب معه ومعي الوصية كي نوثّق حصر الإرث، حتى نتمكن من بيع التركة ويأخذ كل واحد نصيبه».

مستغرباً: «هذا خبر جيد، لأن هذا ما تريدينه، فلماذا تبدين قلقة؟».

ردّتْ: «إنني لا أتذكر أين وضعتُ الوصية!؟ وأخاف أنني أضعتها!».

«لابد وأنكِ لم تبحثي عنها جيداً».

«لقد قمتُ تقريباً بنبش الغرفة ولم أجد شيئاً».

«لقد قلت تقريباً، لذا يجب أن تقومي بنبشها تماماً».

أضاف سائلاً: «هل أخبرتِ **عبدالكريم** بأنكِ لم تجديها؟».

«بالتأكيد كلا. لأنه قد يستغل ذلك فيطمع بأن يجعلني أقوم بتسليفه حصة الأولاد من أجل مشروعه رغماً عني، خصوصاً وأننا قد تشاددنا في الكلام بسبب ذلك».

عقّب **غسان**: «هذا جيد، يجب أن لا يعلم بهذا، فتحسباً لا سمح الله لم تستطيعي إيجادها، فسنجد طريقة لجعله يعترف بشكل شفوي أمام قاضي حصر الإرث بأمر الوصية، وبهذا لن يتمكن من الإنكار عندما يعلم بأن الوصية ضاعتْ».

شخص بعينيه سائلاً بنبرة قلق: «ولكن هل يعقل بأنه هو من أخذ الوصية؟».

هزتْ رأسها نفياً، وأردفتْ: «لا أعتقد، فأنا دوماً أُغلِق غرفتي عندما لا أكون في المنزل، ولا توجد نسخة مفتاح لقفل الغرفة مع أحد غيري».

«هذا أمر مطمئن، لأنه لو كان هو من أخذها فإنه سينكر أمرها أمام القاضي من البداية».

استطرد مغيّراً الموضوع: «الآن ماذا بشأن زواجنا!؟ نحن نعرف بعض منذ عامين ولم نتقدم في هذا الأمر خطوة! العمر أقصر من أن نضيعه أكثر».

مبتسمة: «معكَ حق، لذا أعدكَ بأنه فور أن آخذ نصيب أولادي من التركة، وأشتري بها منزل وقطعة أرض لهم سوف نتزوج فوراً».

غادر **غسان**، وبعد مرور بعض الوقت دخل المحل رجل في حوالي الخمسين من العمر، توجه نحو **فاطمة** حتى صار مقابلها، فسألته: «كيف أستطيع خدمتكَ؟».

ردّ عليها بسؤال: «هل لديكم كتب عن القانون؟».

بعد أن صار قريباً منها لاحظتْ بأنها ربما تعرفه! ولكنها لا تستطيع تذكره. حينما رآها تحملق فيه بصمت، أردف يقول: «هل تسمعينني يا سيدة؟ لقد سألتكِ إن كنتم تبيعون كتباً عن القانون».

«المعذرة من حضرتكَ، لقد شردتُ بأمر ما. في الحقيقة لا أعلم إن كان لدينا طلبكَ، فأنا منذ عملي هنا لم يأتِ أحد ليشتري كتاب قانون، ولكن سأبحث لكَ في المخزن».

دخلتْ المخزن تبحث، وهي لا تزال تحاول تذكر أين قابلتْ هذا الرجل من قبل، فملامحه ليستْ غريبة عنه، وسحنته توحي بأنه من موطنها **حلب**، ولكن لهجته لا تدل على ذلك. عادتْ إليه وقالتْ له معتذرة: «للأسف يا سيدي لم أجد أي كتاب قانون».

أضافتْ سائلة: «هل حضرتكَ من **حلب**؟».

متعجباً: «كيف عرفتِ ذلك؟».

«لأن سحنتكَ تبدو من **حلب**، فأنا كذلك من **حلب**، ولكنني من زمن طويل أعيش هنا. لكن لهجتكَ لم تعد حلبية، فهل تعيش هنا منذ زمن طويل ولا تزور **حلب**، ولا تعيش هنا مع أهلكَ الحلبيين حتى تفقد اللهجة الحلبية تماماً؟».

أومأ بالإيجاب، وأردف: «أجل، لقد انتقلتُ بمفري للعيش هنا منذ أكثر من عشرين عاماً، ولم أزر **حلب** مطلقاً».

«لماذا سافرتَ بمفردكَ ولم تعد لزيارتها؟ أليس لديكَ عائلة هناكَ؟».

«بلى لديَّ، ولكن الظروف تمنعني من زيارتهم».

مستغربة: «أي ظرف سيمنعكَ من زيارة أهلكَ؟».

لم يرد الإجابة، فقال: «يبدو بأن كتب القانون شحيحة، وسأتعب حتى أجد أحدها».

أدركتْ **فاطمة** بأنه ربما قام بفعل مشين جعله يهرب من أهله وموطنه ولا يتمكن من العودة لهم. لذا رأتْ بأنه لا يجب عليها أن تلح عليه. همّ بالمغادرة فسألته بفضول الأنثى المعتاد: «هل أستطيع أن أسألكَ عن سبب حاجتكَ لكتاب قانون؟».

التفتْ إليها مجيباً: «لقد ارتكب شخص أعرفه جريمة منذ سنوات، ويريد معرفة كم عدد السنوات التي بعد انقضائها تسقط العقوبة».

انقبض قلبها! لأنه بعد إجابته هذه بدأتْ شكوكها تدور حوله! فربما بالفعل تعرفه! بل تعرفه جيداً! فبلعتْ ريقها، وسألته: «من أين أنتَ بالضبط من **حلب**؟».

أجاب: «من مدينة **منبج**».

لحظتها سرت رعشة في جسد **فاطمة!** صُعِقتْ! فقد تذكرته وتأكدتْ من هويته! فالرجل الواقف أمامها هو رجل تعرفه في طفولتها! رجل بسببه تغيّر مجرى حياتها! كفيها يرتعشان! فمها فاغر! لا تعلم كيف تتصرف بعد أن عرفته!. .

الفصل الثالث

لا يزال **ياسر** غير مقتنع تماماً بما يريد أخوه **عبدالكريم** القيام به: «هكذا نحن نقوم بالاحتيال على **فاطمة**، ونحن لمْ نرى منها شراً أبداً».

ردّ **عبدالكريم**: «لقد أخبرتكَ بأننا بهذه الطريقة نحمي حق أولاد أخينا؛ من طمع ذلك الرجل، فبالعقل لماذا رجل أعزب فقير يريد الزواج من أرملة لديها ثلاثة أولاد**!؟** بالتأكيد إنه يسعى لمال أولادها، ليحتال عليها، وحالما يحصل على مراده سيرميها وأولادها في الشارع».

أمسك **عبدالكريم** بكتفيّ أخيه وتابع: «ما أقوم به سيمكننا من تنفيذ المشروع الذي سيجعلنا نترك حياة الشقاء والمعاناة، وبنفس الوقت نحافظ على حق أولاد أخينا القُصَّر الأيتام حتى يشبّوا».

※ ※※

استغرب الرجل من رد فعل **فاطمة** فور أن أخبرها أنه من مدينة **منبِج!** فقد امتقع وجهها وصار شاحب اللون**!** وفمها فاغر**!** فسألها: «هل أنتِ على ما يرام يا سيدة**!؟**».

لم تُجِب لأنها لا تزال مصعوقة**!** تشعر بأنها بحلم لا حقيقة**!** فالرجل الواقف أمامها هو **قاسم صالح!** صاحب البقالة**!** الرجل الذي قتل والدها**!** فبعد أن قتل والدها هرب من **حلب**، ولم يعد إليها، واستقر متخفي طوال أكثر من عشرين عاماً في **دمشق**. وها هو الآن يبحث عن كتاب قانون حتى يعرف هل يوجد قانون التقادم في قضايا القتل، يريد أن يرى هل يمكن أن تسقط عنه قضية القتل بعد مرور سنوات كثيرة، حتى على الأقل يعيش في **دمشق** وهو لا يتجنب ويحذر دوماً الشرطة.

لم تكن تعلم **فاطمة** كيف تتصرف، كان الخوف والغضب يختلطان فيها**!** فأمامها الرجل الذي كان سبباً كبيراً في تعاستها**!** بسببه ذاقتْ ووالدتها كل أنواع المرّ، والعلقم، والذل، والحاجة، والمهانة**!** عاشتا دوماً مهددتين ببيع جسديهما حتى لا تموتا من الجوع**!** ماتت والدتها وفي عينيها تعب ووجع الحياة أكثر من وجع المرض**!** إن

كان هو قضى معظم حياته هارباً خوفاً من الموت، فهي بسببه كانتْ كثيراً تتمنى الموت للهرب من حياتها البئيسة.

اقترب منها أكثر عندما رآها لا تتجاوب معه، وسألها مجدداً: «هل أنتِ بخير يا ابنتي؟ ما الذي حدث لكِ فجأة؟».

خافتْ أكثر عندما اقترب منها! لذا تراجعتْ للخلف قليلاً. فحاول طمأنتها: «لا عليكِ أنا لن أؤذيكِ، أنا فقط أريد الاطمئنان عليكِ وحسب، فقد امتقع وجهكِ بشكل مفاجئ».

قررتْ أن تجمع شتات نفسها حتى تستطيع التفكير بالتصرف الصحيح الذي ستقوم به، فضمتْ يديها لبعضهما حتى لا يلاحظ ارتعاشهما، وأخذتْ نفساً عميقاً، وقالتْ وهي تلوك الكلام: «لديَّ.... مرض غريب.... يجعـ...لني.... أتوتر.... بشكل.... مفاجئ».

«الله يعافيكِ يا ابنتي، لقد قلقتُ عليكِ، لقد اعتقدتُ بأنني قمتُ بتصرف بدون قصد مني جعلكِ تقلقين تجاهي».

لم تكن تعي ماذا تعمل بسرعة، هل تترك قاتل أبيها يغادر المكان دون أن تقوم بأي شيء؟ هل بكل بساطة ستجعله يواصل هربه ولا ينال عقابه بعد الجريمة التي ارتكبها بحق والدها وتسببتْ بجحيم من المعاناة والتعاسة لها ولوالدتها؟

أضاف سائلاً: «هل باستطاعتي مساعدتكِ؟ أو الذهاب لشخص لأجعله يحضر لمساعدتكِ؟».

لقد عاشتْ من البؤس ما لا يسمح لها بمسامحته! لذا قررتْ الانتقام منه. قالتْ له متقطعة الأنفاس: «هلاّ تفضلتَ..... بالبقاء... في المحل حتى.... تنتبه..... عليه، ريثما أذهب.... للمنزل.... لأتناول دوائي.... الخاص.... بنوبة.... التوتر هذه».

ردّ عليها: «بكل تأكيد، اذهبي ولا تشغلي بالكَ، سأدير بالي على المحل حتى تعودين».

خرجتْ من المحل، وأخذت نفساً عميقاً لتهدئة نفسها، وتحركتْ قاصدة ورشة **غسان**؛ حتى تعود معه وتجعله يمسك قاتل أبيها ريثما تذهب هي لإحضار الشرطة. ولكن بعد قطعها مسافة قصيرة، خافت أن يشعر القاتل بالريبة فيغادر قبل أن تعود مع **غسان**، فقررتْ أن تطلب من أصحاب المحلات المجاورين لها أن يمسكوه حتى تذهب لمركز الشرطة.

ذهبت لصاحب محل بيع العطور، وحالما وصلتْ إليه لاحظ الارتباك والقلق جليان على محياها، فسألها بنبرة قلق: «ماذا بكِ سيدة **فاطمة**؟ هل حدث لكِ مكروه؟».

أخذتْ نفساً عميقاً، وأردفتْ: «أريد أن أطلب منكَ معروفاً يا عم **حسان**، وهو أن تأخذ معكَ رجلين أو ثلاثة وتذهبون للمحل الذي أعمل فيه لتسمكوا بالرجل الذي هناكَ حتى أذهب لمركز الشرطة وأجعلهم يأتون للقبض عليه».

بنبرة انفعال تساءل السيد **حسان**: «ما الذي قام به ذلك الرجل؟ هل يتحرش بكِ؟ هل نذهب ونلقنه درساً لا ينساه طوال حياته؟».

رأتْ بأنه من الحكمة عدم إخبارهم بأنه قاتل، لأن هذا قد يجعلهم يخافون، مما قد يسبب ارتباكهم وجعل القاتل يفلت منهم. فاخترعتْ كذبة رأتها مناسبة: «لقد تمتْ سرقة منزلنا منذ عدة أشهر، حينها لمحتُ السارق، وهو هذا الشخص. هو الآن لا يعلم بأنني تعرفتُ عليه وقتها، وقد طلبتُ منه البقاء في المحل للانتباه عليه، بحجة أنني أريد الذهاب للمنزل لأمر ضروري وسأعود بسرعة، والحقيقة أنني وجدتُ بأن التصرف الصحيح أن آتي إليكَ لتجمع بعض الرجال؛ وتمسكوه حتى يتسنى لي الذهاب لإحضار عناصر الشرطة».

لم يكن السيد **حسان** مقتنع تماماً بما تقوله **فاطمة**، ولكنه لم يعهد منها أن تكذب من قبل، لذا وثق بكلامها، وذهب مع رجلين، وانقضوا على **قاسم صالح** وهو يصرخ بهم: «ما تريدون مني؟ اتركوني أيها الأوغاد».

قاموا بربطه على احد الكراسي والسيد **حسان** يقول له: «ستبقَ هنا حتى تأتِ الشرطة لتُلقي القبض عليكَ أيها اللص».

لحظتها اعتقد **قاسم** بأنهم يعتقدون بأنه لص يريد سرقة محل بيع الكتب لعدم وجود أحد فيه، فدافع عن نفسه: «يبدو بأن هناكَ لبس في الموضوع، أنا لستُ لصاً، لقد طلبتْ مني السيدة صاحبة المكان أن أنتبه للمحل ريثما تذهب لمنزلها وتعود، فقد أصيبتْ بنوبة توتر، وذهبتْ لإحضار دوائها من المنزل. لذا ليس هناك داع لاستدعاء الشرطة، ولننتظر حتى تعود السيدة وتوضح لكم كل شيء».

السيد **حسان** مزمجراً: «اصمتْ أيها اللص الحقير».

※ ※※

عادتْ **فاطمة** لمحل بيع الكتب، وفور وصولها وجه السيد **حسان** الكلام نحوها: «لقد تأخرتِ، أين عناصر الشرطة؟ ألم يأتوا معكِ؟».

استنجد بها **قاسم**: «لستُ لصاً، إنهم يقولون بأنني سرقتُ منزلكِ**!** وأنكِ لمحتني يومها، تفحصي وجهي جيداً وستجدين بأنني لستُ اللص الذي سرق منزلكِ، أقسم لكِ بأنني لم أسرق أبداً في حياتي».

لا زالتْ **فاطمة** مترددة قليلاً في القرار الذي ستتخذه تجاه **قاسم**، إنها تحتاج لوقت أطول لاتخاذ قرار كهذا، فهو قاتل أبيها**!** الرجل الذي غيّر مجرى حياتها من الأسوأ للأسوأ. قررتْ في الأخير تنفيذ القرار الذي توصلتْ إليه، فأخذتْ نفساً عميقاً، وأردفتْ: «فكوا وثاقه».

تعالتْ علامات الاستغراب على أوجه **حسان** والرجلين اللذان معه**!** فسألها **حسان**: «لماذا؟».

ردّ عليه **قاسم** بنبرة ارتياح: «لأنها بالتأكيد اكتشفتْ بأنني لست لصاً، وأن الأمر برمته سوء اشتباه لا غير».

لقد قررتْ **فاطمة** ترك قاتل أبيها وشأنه**!** بعد أن كانتْ مصممة على جعل الشرطة تُلقي القبض عليه، لتُعلّق حبل مشنقته. وصلتْ لأمام مبنى مركز الشرطة تماماً، بعد أن كانت تفكر بالأمر طوال طريقها إلى هناك، استذكرتْ الماضي البعيد، اليوم الذي لقي فيه أبيها حتفه على يد صاحب البقالة. همّتْ بالدخول لمركز الشرطة لإحضار عناصر الشرطة لإلقاء القبض على قاتل أبيها، ولكنها في آخر لحظة تذكرتْ ذلك الأمر**!** الأمر الذي يقض مضجعها عندما تتذكر ذلك اليوم؛ فتراجعتْ عن إحضار الشرطة، وقررتْ إخلاء سبيل القاتل**!**

أردفتْ **فاطمة**: «فكوا وثاقه، لقد حدث لبس في الموضوع، عندما وصلتُ مركز الشرطة أخبروني بأنهم ألقوا القبض على السارق».

بنبرة فرح قال **قاسم**: «أرأيتم**!** لقد أخبرتكم بأنني بريء».

فك **حسان** وثاقه وهو يعتذر عن المعاملة التي عامله بها بسبب اللبس الذي حدث. وبدورها اعتذرتْ **فاطمة لحسان** وللرجلين اللذان معه لأنها السبب في كل سوء التفاهم الذي حدث. غادر **حسان** ومعه الرجلين، فيما كان لا يزال **قاسم** ينحني ينفض عن ملابسه التراب، اقتربتْ منه **فاطمة؛** فاستقام ليستعد للرد عليها عندما تعتذر له، ولكنه تفاجئ عندما رمقته بشرر**!** وقالتْ بعدوانية: «لا تعد إلى هنا مرة أخرى**!** لا تجعلنا نتقابل ولو مصادفة».

لم يستوعب **قاسم** الأمر**!** كان يتساءل ما الذي تريد منه هذه المرأة وهي تتحدث معه بلهجة فيها كل العدوانية والتهديد**!** فسألها بنبرة كلها استغراب: «ما الذي يحدث؟ هل اقترفتُ بحقكِ أمر سيء يجعلكِ تكلمينني بهذه الطريقة**!؟**».

اقتربتْ نحوه أكثر، وبنفس النبرة: «ارحل بعيداً عني حالاً! ولا تجعلني أقابلكَ في أي مكان».

كلما استطاع **قاسم** التوصل إليه هو الاعتقاد بأنه ربما تذكره بشخص تكن له حقد وكره شديدان، لذا قال لها: «حسناً، سأرحل فوراً، ولا تقلقي لن نتقابل لأنني أسكن بعيداً كثيراً عن هنا» وغادر المكان.

بعد انتهاء دوام عملها في المحل ذهبتْ **فاطمة لغسان**، ولاحظ على الفور من تعابير وجهها أن أمر جلل حدث معها، فسألها عمّا يجري معها، فأخبرته بما جرى. كان بدوره يصغي فاغر الفم غير مصدق ما حدث معها! بعد أن روتْ له الأحداث؛ علّق مدهوشاً: «ما حدث أمور لا تحدث إلا في القصص والروايات! إنها صدفة لم يكن لأحد تخيلها! مجيء قاتل أبيكِ لكِ، وكان لديكِ فرصة لأخذ حقكِ منه ولكنكِ تركتيه يذهب وشأنه! لماذا قمتِ بذلك!؟ ما الأمر الذي تذكرتيه جعلكِ تتخلين عن وضع حبل المشنقة على رقبته!؟».

ردّتْ: « لقد تذكرتُ بأنه يومها ربما لأنه لم يستطع مقاومة أبي بيديه، دافع عن نفسه بالسكين وحدث ما حدث، وخصوصاً وأن أبي هو من انقض عليه في البداية. بالإضافة أنني رأيتُ بأن هروبه وعيشه مع الخوف لأكثر من عشرين عاماً هو عقاب كافٍ له، ويكفي عقاباً بأنه سيظل هارباً حتى مماته. وأرجو أن أُكافأ بعفوي عنه بعدم إيصاله لحبل المشنقة أن ييسر لي الله أمري في حل مشاكلي الحالية».

أضافتْ سائلة: «هل ترى بأنني اتخذتُ قراراً صحيحاً؟».

«بصراحة لو كنتُ مكانكِ لأمسكته من رقبته ولا أتركه إلا بعد أن يلفظ آخر أنفاسه، فهو قاتل وجريمته هذه تسببتْ لكِ ولوالدتكِ تعاسة ومعاناة لا تُغفَر. ولكن يبدو بأن قلبكِ كبير للغاية حتى تقومي بتركه وشأنه، وإن شاء الله تأخذين بدل ذلك أجر من الله بأن ينصركِ بأخذ حقكِ وحق أولادكِ الأيتام».

※ ※※

اشتد الشجار اللفظي بين **فاطمة** و**عبدالكريم** كثيراً! فقال **عبدالكريم** بصوتٍ مرتفع: «هل تريدين أخذ حصة أولاد أخي حتى تنعمي بها مع عشيقكِ».

احمرّ وجهها غضباً! وجأرتْ عليه: «انتبه لألفاظكَ! أنا أشرف منكَ ومن جميع أهلكَ. ثم إنني سأشتري بحصة أبنائي منزلاً وأسجله باسمهم وليس باسمي».

حاول **ياسر** تهدئة الوضع: «اهدأوا أرجوكم، كل شيء سيُحل بالحوار».

عقّب **عبدالكريم** ساخراً: «أنتِ ستكونين الوصية عليهم؛ لذا لن يصعب عليكِ إيجاد طريقة لبيع ما ستشترينه لهم».

ردّتْ وهي تشد على أسنانها: «أنا لستُ مثلكَ حقيرة حتى آكل حق الآخرين، فكيف إن كان مال أولادي».

بنبرة استفزاز: «اشتياقكِ لحضن رجل يجعلكِ تفعلين لأجل عشيقكِ أي شيء».

لحظتها فقدتْ **فاطمة** السيطرة على نفسها! ولم تجد نفسها إلا وقد خلعت حذاء قدمها اليمنى ورمتْ به **عبدالكريم!** أصاب الحذاء صدره! فانتفض يريد التوجه نحوها لضربها! ولكن أخوه **ياسر** امسكه ليمنعه من ذلك، فما كان من **عبدالكريم** إلا أن يشتمها وقد انتفختْ أوداجه: «أيتها الساقطة، العاهرة. لن أعطيكِ فلساً واحداً حتى تستمتعي به مع عشيقكِ».

فقامتْ **فاطمة** بنزع حذائها الآخر ورمته به، لكن الحذاء هذه المرة وقع في **ياسر** لأنه كان يُمسِك به. وقامتْ **أسماء** بدورها الإمساك **بفاطمة** حتى لا يتصاعد الأمر بتوجهها نحو **عبدالكريم** والتصادم معه جسدياً.

قلّبتْ **فاطمة** شفتيها غضباً وشتمتْ **عبدالكريم**: «أنتَ لستَ رجلاً، إنني أتعجب كيف تزوجتَ امرأة وأنتَ لستَ رجلاً».

قالتْ **أسماء** تحاول تهدئة **فاطمة**: «أنا أعرف بأنكِ امرأة عاقلة لا تخرج منكِ هذه الألفاظ، اهدئي ولن يحدث إلا ما يرضيكِ».

حاول **عبدالكريم** دفع **ياسر** للتوجه **لفاطمة**، ولكن **ياسر** منعه من ذلك وأخرجه من المنزل حتى تهدأ الأمور ولا تتصاعد اكثر.

※ ※※

روتْ **فاطمة لغسان** المستجدات التي حدثتْ لها مع **عبدالكريم**، ففكر **غسان** قليلاً ثم أردف يقول بنبرة قلق: «ردة فعله غير مطمئنة!».

«ما الذي تقصده؟».

أجابها: «لو فكرنا قليلاً وسألنا أنفسنا: لماذا هذه المرة فجأة انفعل كثيراً عليكِ وقال لكِ بشكل صريح أنه لن يعطيكِ نصيب أولادكِ؟ بالمقابل المرات السابقة كان يتحدث معكِ بكل لطف وذوق حتى يحاول جعلكِ توافقين على إقراضه نصيب أولادكِ؛ لأنه يدرك بأن الوصية صحيحة وستأخذين بها حق أولادكِ بكل سهولة، ومن هذا نستنتج بأنه ربما يعلم بأن الوصية لم تعد بحوزتكِ!».

أخذ نفساً وأكمل: «والدليل الذي يدعم هذا الاحتمال اختلاف رد فعلكِ عن السابق؛ فلو كانت معكِ الوصية لم تكني لتنفعلي عليه بتلك الطريقة، لأنك كنتِ ستكونين واثقة بأنه مهما هدد وتوعد فلن يتمكن من منعكِ من أخذ نصيب أبناءكِ».

شاخصة العينين: «معكَ حق تماماً بشأن ردة فعلي العصبية والانفعالية».

انتابها القلق أكثر وأكثر، فقد جاءتْ **لغسان** طالبة بعض الاطمئنان؛ فإذا به يزيد من توجسها.

أضافتْ وكأنها تطلب منه إعطائها الأمل بدلاً عن ضرب احتمالات التشاؤم: «ولكن لماذا لا نقول بأن انفعاله الشديد هو نتيجة يأسه من إقراضي له نصيب أولادي، لذا اتجه لطريقة التهديد محاولاً جعلي أتراجع».

أدركَ **غسان** ما تريده فسايرها رغم عدم اقتناعه ولكنه بذات الوقت كان يأمل مثلها: «وتفسيركِ هذا واقعي أيضاً».

أضاف مبتسماً: «يبدو بأنني متشائم أكثر من اللازم».

ولكن فجأة صارتْ **فاطمة** شاردة الذهن! وعليها علامات القلق! وقد تذكرتْ اليوم الذي نسيتْ فيه غرفتها مفتوحة! ذلك اليوم الذي سرقتْ فيه **أسماء** الوصية.

«بماذا تفكرين؟».

ردّتْ وهي تنظر للأرض: «لقد تذكرتُ بأنني ذات مرة نسيتُ غرفتي مفتوحة! ومن ذلك اليوم لم يعد **عبدالكريم** يتحدث معي كالعادة باحترام ولطافة! هل هذا يعني بأنه في ذلك اليوم دخل غرفتي وسرق الوصية!؟ لذا صار يقول بكل وقاحة بأنه لن يعطيني نصيب أولادي!؟».

ازدادتْ شكوك **غسان** يقيناً، لكنه رغم ذلك حتى لا يريد زيادة مخاوف **فاطمة** فعلّق بعد أن قهقه: «يبدو أنه أصابتكِ عدوى التشاؤم مني. إن شاء الله أن سبب وقاحته هي محاولته الأخيرة لجعلكِ تقرضينه نصيب أولادكِ».

ورأى أنه من الأفضل في الوقت الراهن تغيير الموضوع فاستطرد سائلاً: «بالمناسبة هل فكرتِ كما قال **عبدالكريم** بأنني أطمع في مال أولادكِ لذ أريد الزواج منكِ؟».

نظرتْ نحوه وأجابتْ: «بالطبع أي شخص سيعتقد بأنكَ تريد الزواج مني لأجل مصلحة ما، فأنتَ تريد الزواج بأرملة لديها ثلاثة أولاد. ولكني أعرفكَ جيداً فأعلم بأنكَ لا تريد مني إلا أنا. وبكل الأحوال لستُ خائفة منكَ أو من غيركَ أن تأكل مال أولادي، لأنني بكل بساطة لن أفرط بحقهم لأجل أي أحد، حتى لأجلي أنا».

اكتفى بالتعقيب على كلامها بابتسامة.

※ ※※

«الآن متى سنبيع المزرعة والمنزل حتى يأخذ كل شخص نصيبه؟» كان هذا سؤال **فاطمة** وجهته **لعبدالكريم**، بعد أن رأتْ بأنه من مصلحتها مسايرته، وعدم اللجوء للعنف اللفظي معه، لأنها في موقف لا يسمح لها بذلك.

أسبل أجفانه، وابتسم ابتسامة خبيثة وهو يردّ عليها: «أنتِ من تؤخرين ذلك».

مستغربة: «وكيف ذلك؟».

«لقد طلبتُ منكِ منذ مدة أن أذهب وإياكِ ومعكِ الوصية لحصر الإرث، ولكنكِ للآن لم تقومي بذلك».

كانتْ تحاول إخفاء ارتباكها بعد كلامه وهي تقول: «ليس هناك داع للوصية في الوقت الراهن، فكما أخبرتكَ سابقاً الوصية لدى إحدى صديقاتي وهي مسافرة، ولم ترجع بعد، ولا أعلم متى ستعود. لذا بما أنكَ تعلم بمكنون الوصية لنذهب لقاضي حصر الورث ونخبره بالوصية وبالورثة حتى نباشر بعملية حصر التركة ونبيعها بأسرع ما يمكن».

أدرك بأن هذه خطة منها، بجعله يعترف شفهياً أمام القاضي بأمر الوصية؛ حتى لا يتمكن من إنكارها عندما تخبر القاضي بعد ذلك بأنها أضاعتها.

تظاهر بالاستغراب سائلاً: «ما الذي تعنيه بأنني أعرف بمكنون الوصية؟».

«لقد أخبرتني مسبقاً بأن والدكَ –الله يرحمه– أخبركَ بأمر الوصية».

«نعم لقد أخبرني بذلك، ولكنه في الأخير لم يُريني إياها، ولم يجعلني أشهد عليها، فهل تريدينني أن أشهد أمام القاضي بوصية لم أشهد عليها أو حتى أرها!؟».

«لقد أخبركَ والدكَ بلسانه بأنه سيوصي لأولادي بثلث التركة، أليس كذلك؟».

ردّ بكل برود: «أجل، ولكن ربما حينما كتب الوصية غير رأيه وأوصى لأولاد أخي بأقل من الثلث، أو ربما بأكثر من ذلك. لذا من الأفضل أن ننتظر صديقتكِ حتى تعود لتأخذي منها الوصية، ويأخذ كل منا حقه دون زيادة أو نقصان».

لم يعد بمقدور **فاطمة** المراوغة أكثر، وشعرتْ لحظتها بأنه يعرف أن الوصية لم تعد بحوزتها، وأنه قد يكون هو أصلاً من سرقها منها، فاعترفتْ: «بصراحة لقد أضعتُ الوصية**!**».

تظاهر **عبدالكريم** بالذهول متسائلاً: «كيف ومتى حصل ذلك؟».

«منذ مدة، لكنكم تعلمون جيداً بأن الوصية تعطي أبنائي ثلث التركة، لذا لا بأس إن لم نجدها، أليس كذلك؟».

زم شفتيه قائلاً: «بصراحة يا **فاطمة** الآن بدأتُ أشك بأمر وجود الوصية من عدم وجودها**!**».

«ما الذي تريد قوله**!؟**».

ردّ بخبث: «ما الذي يضمن لي أن أبي في نهاية الأمر لم يتراجع عن مسألة كتابة الوصية**!؟** وجعل مسألة تقسيم الورثة للشرع والقانون».

احمرّ وجه **فاطمة**: «أنا لستُ محتالة حتى أدعي بوجود وصية غير موجودة».

ثم التفتتْ نحو **ياسر** وقالت له: «لقد أخبركَ والدكَ بأنه سيوصي بثلث تركته لأولادي، أليس كذلك؟».

لم يستطع **ياسر** النظر في عينيها وهو يجيبها: «هذا صحيح، ولكنني مثل ما قال **عبدالكريم** لم أرَ الوصية أو كنتُ شاهداً عليها حتى أشهد أمام القاضي بوجودها».

أرختْ **فاطمة** وهي تقول بخيبة ظن: «حتى أنتَ يا **ياسر!؟**».

ثم ذهبتْ نحو **أسماء**، وأمسكتها بكتفيها قائلة بنبرة استجداء: «ذات مرة في غرفتي أريتكِ الوصية، هل تتذكرين؟».

ردّتْ **أسماء**: «لقد حدث ذلك، ولكن اعذريني فكما تعلمين أنا امرأة لا تستطيع الكتابة أو القراءة، لذا كيف سأشهد بأن تلك كانت الوصية التي أوصى بها عمي لأولادكِ؟».

عقّب **عبدالكريم** على كلام زوجته: «هذا صحيح، فربما هذه حركة شيطانية منكِ**!** فربما أنكِ أعطيتيها ورقة عادية، وأخبرتِها بأنها الوصية لمعرفتكِ بأنها أُميّة، حتى تكسبيها مستقبلاً بأن تشهد معكِ بأنكِ كنتِ تملكين وصية لكنكِ أضعتِها».

أبعدتْ **فاطمة** يديها عن **أسماء**، ونظرتْ نحو **عبدالكريم** بعينين تقدحان شرراً! وقالتْ: «إن تفكير شيطاني كهذا لن يفكر به إلا شيطان مثلكَ! لذا الآن أستبعد بأنني أضعتُ الوصية!».

سألها: «ولماذا تستبعدين ذلك؟».

ردّتْ بعدوانية: «لأنه تمتْ سرقتها!».

أضافتْ وهي تُشير بإصبع الاتهام نحوه: «وأنتَ من سرقها!».

ردّ بعينين جاحظتين: «هل تتهميني الآن بالسرقة!؟ يبدو بأنكِ جننتِ!».

أردفتْ مؤكدة الاتهام: «ذات يومٍ عندما ذهبتُ لعملي نسيتُ باب غرفتي مفتوحاً! ومن ذلك اليوم اختلفتْ تصرفاتكَ معي! فقد صرتَ تتحدث معي بعجرفة! وتتوعدني بأنني لن آخذ نصيب أبنائي! وهذا يدل على أنكَ تعلم بأن الوصية لم تعد بحوزتي، وهذا بكل بساطة لأنها صارتْ بحوزتكَ».

أشار لها بإصبعه مهدداً: «سوف أجعلكِ تذوقين المرّ لاتهامكِ لي بالسرقة».

خرجتْ **فاطمة** تمشي في الطرقات بلا وجهه! بعد أن أدركتْ بأن حق أولادها سيضيع! إنه الحق الذي كان سيهون عليها القليل من عبء الحياة في المستقبل، فبه على الأقل ستضمن مأوى لأولادها دون الخوف من النوم على أرصفة الشوارع إذا ما قستْ عليهم الحياة ولم يتوفر لديها المال لاستئجار منزل. لقد كانت تأمل كثيراً بهذا الأمر، وخسرانه سيجعلها تعيش مع قلقها النفسي دوماً.

توجهتْ نحو **لغسان**، فهو مأواها الوحيد عندما تقسو عليها الحياة، عندما تضيق عليها الدنيا، حينما تستد بعينها كل الطرق. سألها فور التقائهما: «ماذا بكِ؟ يبدو بأنكِ لستِ على ما يرام! هل حدث لأحد أولادكِ مكروه!؟».

أجابته بصوتٍ واهن: «إنه يعرف بأن الوصية ليستْ معي! لأنها معه! لأنه هو من سرقها! لقد خسرتُ حق أولادي! لقد أضعتُ حقهم».

بعد يومان التقى **غسان فاطمة** وقال لها وهو يرسم ابتسامة عريضة: «لقد وجدتُ طريقة قد نتمكن بها أخذ حق أولادكِ».. .

الفصل الرابع

«لقد وجدتُ طريقة قد نتمكن بها أخذ حق أولادكِ» قال **غسان** ذلك وهو يرسم ابتسامة عريضة.

فسألته **فاطمة** وكلها فضول وأمل: «كيف ذلك**!؟**».

فأردف **غسان**: «لقد ذهبتُ لأحد القضاة وأخبرته بقصتكِ، فأخبرني بأنه قد يكون هناكَ حلّاً يجعل أهل زوجكِ يعترفون بالوصية، وهي أن نذهب للشاهدين اللذان شهدا على الوصية، ونجعلهما يشهدان بذلك أمام المحكمة. لقد أخبرني القاضي بصراحة بأن شهادتهما ليستْ دليل دامغ لإثبات الوصية، ولكن ربما تضغط على **عبدالكريم** فيعترف بالحقيقة».

أضاف: «لابد وأنّكِ تتذكري اسميّ الشاهدان، أليس كذلك».

فكرتْ قليلاً، ثم قالتْ بنبرة خيبة: «لم أركز على اسم الشاهدان في الوصية**!** لم أفكر بأنني سأحتاج لحفظهما».

شدد عليها: «فكري بتركيز، لابد وأن تتذكري أحدهما. أو اسألي أناس كانوا على مقربة من والد زوجكِ فربما تجدين شخص يفيد في هذا الأمر».

«حسناً، سأفعل ذلك».

وبعد ثلاثة أيام ذهبت **فاطمة** لورشة **غسان** وحالما رأته قالتْ ووجها يشع سعادةً: «ألم أُخبركَ بأن الله سييسر ويسهل أمري عندما اتخذتُ قرار عدم تسليم **قاسم صالح** للشرطة».

«بشرّي، ما آخر المستجدات؟».

أخذتْ نفسها، ثم أردفتْ: «لقد ظللتُ أسأل الأشخاص الذين كانوا يترددون على والد زوجي، وبعد بحث كثير حصلتُ –الحمد لله– على اسم الشاهدين، وحصلتُ أيضاً على عنوانهما».

بدون تفكير قام **غسان** بمعانقة **فاطمة!** وهو يقول: «الفرحة لا تسعني**!** فأنتِ لا تعلمين كم سعادتكِ تُسعدني».

فيما ظلّتْ **فاطمة** في حالة صدمة للحظات وقد احمّر وجهها**!** فهذه أول مرة يعانقها **غسان!** أول مرة تكون في حضنه**!** شعرتْ للحظات بأمان كبير وهي بين ذارعيه الكبيرتان، وصدره الواسع. وبعد لحظات دفعته بعيداً عنها وقالت بنبرة حادّة: «ما الذي تقوم به**!؟** لقد اتفقنا منذ البداية بأن أجسادنا لن تلامس بعضها إلا بعدما نتزوج».

بدوره احمّر وجه **غسان** بعد إدراك ما قام به، وأردف معتذراً: «صدقيني لقد قمتُ بذلك بدون قصد أو إدراك مني من شدة فرحتي لأجلكِ».

أردفتْ وهي تلوك الكلام لعدم تجاوزها الموقف المحرج بعد: «حسناً، سأسامحكَ هذه المرة فقط. من الآن وصاعداً يجب أن تكون منتبه لتصرفاتكَ حتى لو بلغتْ سعادتكَ عنان السماء».

※ ※※

في اليوم التالي تحرك كل من **غسان** و**فاطمة** نحو منزل الشاهدان، وفي طريقهما قالتْ **فاطمة**: «إنني أشعر بالذنب لأن فرحة أهلكَ بزواجكَ تتأخر بسببي، وكذلك أيضاً أنتَ تتأخر بالزواج لانتظاركَ لي بدون كلل أو ملل».

ردّ مبتسماً: «لا تشعري بالذنب، فالمهم أننا سنكون في الأخير معاً، ولا بأس إن تأخر ذلك قليلاً بعد فأمامنا العمر كله».

توقفتْ عن الحركة فجأة ووقفت أمامه، وقالت له بنبرة خوف: «اسحب كلامكَ».

فتساءل مستغرباً: «أسحب ماذا**!؟** أننا سنكون معاً في الأخير**!؟**».

«كلا، اسحب جملة "أمامنا العمر كله"».

سألها مشدوهاً: «لماذا**!؟**».

ردّتْ بنبرة جادة: «لأنني أتشاءم من هذه الجملة**!** لديَّ ذكرى سيئة معها. هيا اسحبها».

«وما هذه الذكرى؟».

«لا داع لذكرها».

كانتْ الذكرى عندما كانت مع زوجها الأول وكان كل منهما يلثم فم الآخر، وتوقفتْ عن ذلك، فأخبرها بأنه لم يشبع منها حتى تتوقف، فابتسمتْ قائلة: بأن العمر كله أمامهما، ولكنه رحل عنها سريعاً، انتهتْ حياة السعادة والأمان التي كانت تعيشهما معه أسرع مما كان أكبر المتشائمين سيتوقع سرعة مضيهما، لذا صارتْ تتشاءم من هذه العبارة.

استطرد: «حسناً لنغير الموضوع، ودعيني أسالكِ: هل تؤمنين بالحُبّ من أول نظرة؟».

تابعا طريقهما.

«أنا أؤمن بالحُبّ ذاته أياً كانت الطرق المؤدية إليه».

ابتسم، ورمقها بنظرة آسرة، وقال بنبرة انبهار: «دوماً تدهشني ردودكِ».

وصلا لمنزل الشاهد الأول، وقاما بطرق الباب، وفتحتْ لهما امرأة، فسألتها **فاطمة**: «هل هذا منزل العم **أبو محمود؟**».

أجابتْ المرأة: «أجل، أنا زوجته، ماذا تريدون؟».

«لقد كان شاهداً على وصية، ونريد أن يشهد بذلك أمام القاضي».

ردّتْ المرأة: «للأسف **أبو محمود** ليس موجود».

«ومتى سيكون موجود؟».

رفعتْ كتفيها بمعنى لا أدري وهي تقول: «إنه مسافر، ولا أعلم متى سيعود بالضبط».

«سافر إلى أين؟».

«**ليبيا**».

«ومتى سيعود تقريباً؟».

«ليس لديه وقت محدد للعودة، إنه يسافر بين وقت وآخر إلى هناك، لأنه يتاجر بأشياء من هنا وهناك، ولكن تقريباً يغيب لمدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر».

«ومتى سافر هذه المرة؟».

«قبل أسبوع».

شعرتْ **فاطمة** بالخيبة، وأردفتْ: «شكراً، على كل حال حينما يعود أخبريه بأن **فاطمة** زوجة المرحوم **شريف محمد** تبحث عنكَ حتى تشهد على الوصية التي أوصى بها المرحوم **محمد شريف** لأبنائها». وغادرتْ و**غسان** المكان.

في طريقهما لمنزل الشاهد الآخر، لاحظ **غسان** التكدر على وجهها فقال يواسيها: «لماذا كل هذا التكدر في محيّاكِ؟ لا يزال لدينا الشاهد الآخر، وربما هذا الشاهد أيضاً يعود من سفره قبل موعد جلسة المحكمة».

وصلا لمنزل الشاهد الثاني، وكان يقف أمام المنزل شاب، فسلم عليه **غسان**، ثم سأله: «هل هذا منزل **عبدالعليم**، المشهور **بأبو ناجي**؟».

ردّ الشاب: «نعم، وأنا ابنه **أحمد**، ماذا تريد؟».

«لقد كان والدكَ أحد الشاهدان على وصية، وقد ضاعتْ هذه الوصية، لذا نريد أن يأتِ ليشهد أمام القاضي بذلك».

حرك الشاب رأسه قائلاً: «أبي لن يستطيع الذهاب للقاضي مع الأسف».

سألتْ **فاطمة**: «لماذا؟ هل هو مريض ولا يستطيع الخروج من المنزل؟».

أجاب الشاب: «لقد انتقل والدي إلى رحمة الله قبل أربعة أشهر».

عاد **غسان** و**فاطمة** يجران أذيال الخيبة. شحب وجه **فاطمة** بعد أن كان قبل وقت قريب مكسو بالبهجة والأمل. وأردفتْ بنبرة يأس كبير: «يقولون المرأة ضلع قاصر، أنا لم أدع هذا المثل ينطبق عليَّ، لأنني كنت صامدة، كنتُ دوماً ضلع صامد. ولكنني بالمقابل دوماً كنتُ أشعر بأنني ضلع خائب! أخرج من خيبة لأدخل خيبة أخرى».

تنهدتْ بعمق، وتابعتْ: «كل لحظة سعادة تغمرني لا تلبث أن تذهب هباءً منثوراً فوق مستنقع خيباتي!».

عقّب **غسان** على كلامها: «لا داع لكل هذا اليأس! فبإذن الله سوف يعود **أبو محمود** من سفره في الوقت المناسب».

ردّتْ وعليها ابتسامة ساخرة: «أنا أعلم بحظي في الحياة، لذا أؤكد لكَ بأنه لن يعود أبداً في الوقت المناسب».

تابعتْ كلامها بوجه مُقتِر: «قمة قهري عندما تبعتُ يوماً أمي فوجدتها تذهب لتتسول الناس! لقد كانت لا تريد أن تجعلني أشعر بالمهانة، لذا لم تخبرني بأنها كانت تتسول بين الحين والآخر، وأنا بدوري لم أصارحها بأنني اكتشفتُ ذلك حتى

لا أجعلها تشعر بالخجل، لأنني كنتُ بعمر كاف لأعلم بأنه لم يكن لديها خيار أفضل من ذلك. بعد موت أمي عانيتُ أكثر وأكثر، لقد وصلتُ في مرحلة ما أنني نسيتُ بأن هناك وجبتان اسمهما الفطور والعشاء! حتى أقتصد في المال الذي أكسبه من عملي، كي لا أضطر لبيع جسدي من أجل بطني».

توقفتْ وحدقتْ بوجه **غسان** قائلة بنبرة توحي بمرارة بالغة: «أنا أريد أن آخذ حق أولادي حتى لا يعيشوا حياة المعاناة والبؤس التي عشتها كثيراً».

وضع **غسان** يديه على كتفيها قائلاً: «هوني عليكِ، سوف أظل معكِ دائماً، وتأكدي بأننا سوف نحصل على حق أولادكِ؛ أعدكِ بذلك».

قالتْ بصوتٍ مبحوح: «أُحِن إلى حشرجة بُكائي».

فقال مشجعاً: «إذن لتبكي، البكاء سيُريحكِ».

ردّتْ شاخصة العينين، وبابتسامة شاحبة: «لكنني لا أستطيع! يبدو بأنني قد استنزفتُ كل دموعي على أوجاعي وخيباتي الماضية».

في اليوم التالي فور أن وصلت **فاطمة** لمحل بيع الكتب الذي تعمل فيه، دخل عليها **غسان** وأعطاها ورقة قائلاً: «هل يمكنكِ قراءة الورقة لأجلي يا سيدتي؟».

لا تزال خيبة الأمس متشعبة في صدرها، وكان ذلك واضح على محياها. ردّتْ وهي تصطنع الابتسامة: «على الرحب والسعة حضرتكَ».

ثم شرعتْ تقرأ الورقة: «كم أود وأسعى كثيراً أن أكون لكِ جدار يسندكِ حين يُرهقكِ التعب، وكُراسة تُخربشين عليها حين يُداهمكِ الملل، وأُذن تصيحين فيها حين يخنقكِ الألم، وأرضاً تتقفزين فوقها حين يغمركِ الفرح. وبالطبع كل هذا ليس بدون مُقابل، والمُقابل أن لا تشعري لحظة بأنكِ وحيدة».

ردّتْ وقد ابتسمتْ ابتسامة حقيقة ولكنها شاحبة، فقد هون عليها كلام بسيط كهذا كثيراً، لأنه خرج من فم شخص تعرف جيداً بأنه لن يتخلى عنها في مآزقها، لن يتركها وحيدة مع حزنها. لكن الوقت لم يحن بعد لتجاوز خيبة الأمس القريب حتى تنفرج شفتيها بابتسامة لا شحوب فيها، خيبة تهدد ضياع حق أولادها الأيتام، وهي قليلة الحيل لا تملك شيء يؤمن مستقبلهم من المعاناة التي رافقتها معظم حياتها: «لولاكَ لعشتُ ألم التألم وحيدة، فشكراً لأنكَ موجود في حياتي».

※ ※※

رفعتْ **فاطمة** دعوة في المحكمة على **عبدالكريم** وأخيه **ياسر** بشأن الورث، وادعتْ فيها بأنه تم الاحتيال عليها بسرقة وانكار الوصية. وبعد أن اقترب موعد المحاكمة ذهبتْ **فاطمة لعبدالكريم** وقالتْ له: «اتق الله في حق أولادي، اعطهم حقهم دون اللجوء للمحاكم، ففي النهاية لقد كان بيننا عيش وملح، ومن المؤسف أن تنتهي علاقتنا في المحكمة».

تثاءب، وردّ بكل برود: «أنتِ من طلب المحكمة، لذا إن كانت علاقتنا ستنتهي بهذه الطريقة فأنتِ السبب. وعلى العموم أنا لستُ شيطاناً فسواء أبي أوصى لأولادكِ أم لم يقم بذلك، فحين نستقر في مشروعنا جيداً، ويبدأ المشروع بدر المال سوف نأتِ ونعطيهم مالاً يجعلهم يعيشون حياة جيدة، ففي الأخير هم أولادنا».

أضاف بنبرة خبث: «ولكن أيضاً يجب أن يكونوا قد كبروا كفاية حتى لا يتمتع بمالهم رجال غرباء».

استفزها كلامها! فقالت بصوت أجش: «هل تعود لمثل هذا الكلام الحقير مثلكَ! بجميع الأحوال أنا كنتُ أريد أن نحل الأمر بدون محاكم، ولكن يبدو بأنه يجب أن آخذ حق أبنائي رغماً عن أنفكَ».

ردّ عليها مغادراً: «سنرى ذلك».

※ ※※

بدا التعب جلياً على **فاطمة**، تعب الروح لا الجسد، فقد بدأ جدار صمودها أمام ظلم الحياة يتشقق، ولولا أنها تملك أولاد لتركته ينهار! فقد نال منها الانهاك كثيراً.

بعينين ذابلتين: «لقد بدأت أكره جميع رجال العالم بسبب الظلم الذي أتعرض له بسببهم! فقد قابلتُ العديد من الظلمة القساة أمثال **عبدالكريم**، وأبي، ووالد أطفالي الراحل».

تابعتْ وهي تنظر من النافذة: «كان أبي يجعلنا نعيش في بؤس بسبب قسوته وظلمه، وبعد موته لم ينتهي البؤس والشقاء من حياتنا، فلا ارتحنا في حياته ولا بعد مماته. وأبو أولادي كذلك أذاقني المرّ والعلقم في حياته، وبعد وفاته ترك لي أولاد ليزداد حملي وشقائي، وهكذا....».

لحظتها قاطعها **غسان** متسائلاً: «عن أي شخص تتحدثين بالسوء**!**؟ أنتِ دوماً تخبريني بأن زوجكِ الراحل كان شخصاً جيد للغاية، ولم تقولي عنه كلمة سيئة في أي لحظة**!** فماذا جرى الآن حتى تنعتيه بالظلم في حياته وبعد مماته**!**؟».

نظرتْ نحوه وردّتْ: «من كنتُ أُحدثكَ عنه هو **عامر** زوجي الأول، أما من أتحدث عن ظلمه هو **شريف** أبو أولادي، زوجي الثاني من تزوجته بعد **عامر**».

أردف مندهشاً: «أنتِ لم تخبريني من قبل أنكِ تزوجتِ قبل **شريف!** ولماذا لم تخبريني طول هذه المدة عن ظلم زوجكِ **شريف** وقسوته؟».

«لأنني لم أعتبره يوماً زوجاً**!** لأنه كان شيطاناً**!** فلا يستحق أن أضيع الوقت لذكره حتى لو بالسوء، وكذلك لأن ذكراه تجعلني أشمئز».

مدهوشاً: «ألهذه الدرجة كنتِ في بؤس معه**!**؟».

«بل أكثر من ذلك**!** لقد كان يضربني بسبب وبدون سبب**!** لأنه كان يرى بأن القسوة على الزوجة يجعلها تخشاه وتراه رجلاً**!** حتى عند ممارسة الجنس كان يقوم بذلك بدون أي مقدمات، بدون أن يسبق ذلك أي ملاطفات أو مداعبات، لأنه كان يرى هذه أشياء تفقد الرجل هيبته أمام زوجته**!** عندما يمارس معي الجنس كان يحرص أن يقوم به بقوة الجسد أكثر من قوة الجنس**!** حتى يثبت لي خشونته فأراه بشخصية الرجل الخالص الذي لا توجد فيه أي ذرة نعومة وحنّية**!** لم يكن همه الأكبر الاستمتاع بالجنس بقدر همه بأن يثبت بأنه حتى في ذلك رجل خشن لا لين فيه**!**

لم أسمع منه بعد زواجنا كلمة حب، بل ولو حتى كلمة طيبة. كان منطقه أن جميع النساء خائنات إذا لم يتم حبسهنّ ومراقبتهنّ. لذا لم أكن أخرج من المنزل إلا إذا كان معي، وعندما يخرج من المنزل كان يغلق عليَّ بالقفل من الخارج حتى يضمن أنني لن أُدخل في غيابه أحد، ورغم كل هذا كان بين الحين والآخر يفتش في أغراضي يبحث عن أي شيء يدل على أنني خنته**!** وكأنه تزوجني فقط لكي يثبت أنني خائنه**!** لقد أشبعني ضرباً، شتماً، ذل، مهانةً، وندماً على أنني لم أتعرف عليه أكثر قبل أن أقع في خطيئة الزواج به».

سألها **غسان** باستغراب: «وما الذي جعلكِ تحتملين كل هذ؟ لماذا لم تطلبي منه الطلاق؟».

أجابتْ: «في البداية قلتُ سأتحمّل وأسايره حتى يتغير مع الوقت، وبنفس الوقت لم أكن أريد المخاطرة بالطلاق والعودة للشارع لأعود لحياة القتال والمعاناة للحفاظ على جسدي من الذئاب البشرية التي يغريها جسد امرأة مطلقة مقطوعة من شجرة. ثم حملتُ بطفلي الأول حينها استبشرتُ بأنه سيغير معاملته معي بعد أن ألد له طفلاً،

ولكنني كنتُ مخطئة فحتى بعد ولادتي ثلاثة أطفال لم يغير ذلك من طبعه شيئاً، ووقتها لم يعد بإمكاني طلب الطلاق لأنه حتى لو وافق على ذلك فسيحرمني من أولادي، وأنا سأختنق إذا ابتعدوا عني».

شخص بعينيه متسائلاً: «والدكِ كان قاسٍ للغاية عليكِ، وزوجكِ **شريف** كان أظلم وأشد قسوة! ألم يجعلكِ ذلك تتعقدين من الرجال؟».

«تقصد أنني بعد كل هذا المفروض أن أكره جميع الرجال، ولم أكن لأقع في حبكَ ونخطط للزواج، أليس كذلك؟».

«ليس هذا مقصدي، ما أعنيه أنني كنتُ سأتوقع أن لا تقعي في حب أي رجل سواء أنا أو غيري، بسبب والدكِ وزوجكِ».

عادتْ تنظر من النافذة وأردفتْ: «لأنني دوماً منذ نعومة أظفاري وحتى الآن لم أتوقف عن حلم وصول ملاك ينتشلني من معاناتي، ويجعلني أحيا للأبد حياة وردية فلا أذكر أنني عانيتُ يوماً. هذا الحلم لم يتركني رغم كل ما مررتُ به».

ثم التفتتْ نحوه ورمقته بنظر استجداء وأمل وهي تقول: «وبعد معرفتي بكَ لأكثر من عامين آمل أن تكون ملاكي الذي أحلم به دوماً، ملاكي الأخير الذي لن يتخلّ عني يوماً، هل ستكون كذلك؟».

أجابها مبتسماً: «سيكون هذا شرف لي».

ثم استطرد سائلاً: «هل **عامر** زوجكِ الأول توفي أيضاً؟».

«كلا».

«إذن كيف ولماذا انفصلتِ عنه؟».

أجابتْ بصوت مبحوح: «لقد عشتُ معه أجمل أوقات حياتي. لقد أسميته ملاكي المخلِّص، لأنّه حرفيّاً خلّصني من المعاناة التي كنتُ فيها قبلَه. لقد كنا نعيش حياة سعيدة، كان يملك محل خياطة وكانت الأمور على خير ما يرام، حتى تشاجر مع أحد أصحاب محلات الخياطة في السوق، كان صاحب محل كبير، واتفق مع بقية أصحاب محلات الخياطة على **عامر**، فنشروا إشاعات سيئة عنه، بالإضافة إلى تخفيض الأسعار لمحاربته حتى أفلس! وأُصيب بالإحباط! ولم يجد عملاً مناسباً آخر كونه لا يعرف سوى مهنة الخياطة.

ولكنني دوماً كنتُ أشجعه وأخبره بأن الأمور ستتحسن مع الوقت، وكنتُ أقتصد كثيراً في مصاريف المنزل حتى لا ينهك نفسه كثيراً وهو يبحث عن عمل مناسب، حتى لا يكتئب أكثر. ولكنه في الأخير لم يكن يملك الصبر الكافي، فقرر الرحيل عن **سوريا** بكلها».

توقفتْ لتأخذ نفسها، ثم تابعتْ: «لقد ترجيته أن لا يرحل، أخبرته بأن نصبر ولو أكلنا خبز وماء، حتى يجد عملاً مناسب. ولكنه كان قد يأس من حياته، لذا لم تنفع معه كل توسلاتي. وما لم أكن أتوقعه هو عندما أخبرني بأنه سيقوم بتطليقي! لقد صدمني ذلك! لم أكن أفكر مجرد تفكير بأن من اعتبرته بكل ثقة ملاكي المخلِّص سيتخلّص مني! رغم أنني أعلم بأنه يقوم بهذا رغماً عنه، لكن بما أنه كان لي ملاك فإني أعتبر ذلك تخلُّص مني.

لقد قال بأن سيطلقني حتى أكون حرة، وأجد رجل آخر أحيا معه حياة أفضل، وهذا لأنه يرى بأنه سيرحل بعيداً وغيابه سيطول كثيراً، وربما لا يعود. وتطلقنا، ورحل بعيداً، وبقيتُ وحيدة في وحشة دمشق الكبيرة، لذا لم أنتظر طويلاً للتعرف على **شريف** أكثر قبل أن أوافق على الزواج منه، خصوصاً وأنني كنتُ أراه شخصاً محترماً، وهذا كان شيء طبيعي لأن المدة التي عرفته فيها لم تكن كافية سوى لأن أرى فيه الخصال الجيدة، أو بالأحرى لم تكن كافية لأكتشف بأنه كان يزيف أيضاً تلك الخصال.

عشتُ مع **شريف** الجحيم بذاته! لذا لن أسامح **عامر** لأنه كان السبب بذلك، لأنه أخرجني من بلدي **حلب**، بعد أن كنتُ قد تكيفتُ بالعيش هناك، وتركني وحيدة في دمشق لا أعرف فيها صديق ولا قريب، لأنني لم أعش معه فيها سوى عام واحد، وهذه ليستْ فترة كافية حتى لأتعود على العيش فيها، لذا وقعتُ بسرعة في شرك إبليس (**شريف**)، فلو عاد لي **عامر** معتذراً وقد صار ملاكاً حقيقياً بأجنحة فلن أسامحه».

وضع يديه على كتفيها، وأردف قائلاً: «سوف أكون ملاككِ الأخير، الأخير لأنكِ لن تحتاجي أو تنتظري بعده لأي ملاك، أعدكِ بذلك».

※ ※※

وجه القاضي كلامه نحو **فاطمة** قائلاً: «سيدة **فاطمة أحمد حسن**، أنتِ تدعين بأن المدعو **محمد شريف** جد أولادكِ قد كتب وصية بأن ثلث تركته تذهب لأولادكِ الثلاثة وهم **محمد شريف محمد، عبدالكريم شريف محمد، وفايزة شريف محمد**. ولكن هذه الوصية تمتْ سرقتها، وتتهمين أخو زوجكِ المدعو **عبدالكريم محمد شريف** بأنه من سرقها، أليس كذلك؟».

ردّتْ **فاطمة**: «أجل سيدي القاضي».

ثم وجه سؤاله نحو **عبدالكريم**: «ما ردّكَ على ادعائها سيد **عبدالكريم؟**».

أجاب **عبدالكريم**: «إنها للأسف سيادتكَ تكذب. فأنا لم أسرق أي شيء منها، وحتى أنني أشك بالأساس بوجود وصية».

رمقته **فاطمة** بحقد شديد! فهي تراه يكذب ويفتري بكل برود، يسعى لأكل مال أيتام بدون أن يرف له جفن. كانتْ حاقدة للغاية عليه، لأنه يسعى لحرمانها من الشيء الذي سيوفر لها ولأولادها الأمان في مقبل الأيام.

«السيدة **فاطمة** تقول بأن والدكَ أخبركَ وأخيكَ **ياسر** قبل موته بمدة بأنه سيوصي لأولاد أخيكَ بثلث التركة، أليس هذا صحيحاً؟».

«أجل، لقد أخبرنا بذلك، ولكنه بعد ذلك لم يرينا الوصية، ولم يخبرنا بأنه قد كتبها، لذا بما أنه لم يقم بذلك فنرى بأنه تراجع عن كتابة وصية».

وجه القاضي نظره نحو **فاطمة** وسألها: «هل لديكِ دليل بأن **عبدالكريم** سرق الوصية؟».

هزتْ رأسها بمعنى لا. فأضاف سائلاً إياها: «حسناً، هل أحضرتِ الشاهدان اللذان شهدا على الوصية؟».

ردّتْ: «أحد الشاهدان قد توفي قبل أشهر، والآخر مسافر ولا نعلم متى سيعود».

فأردف القاض: «الحق يقال، الشاهدان حتى لو كانا موجودان ولا يملكان دليل دامغ بأن المرحوم **محمد شريف** كتب وصية؛ فلن يكون لهما فائدة ترجى لكِ. وبما أنه لا توجد وصية بحوزتكِ؛ فإنه للأسف لا يحق لأولادكِ أن يرثوا من تركة جدهم لأن والدهم **شريف محمد شريف** توفي قبله».

بنبرة فيها شيء من الانفعال سألتْ **فاطمة**: «ولماذا لا يرثون؟».

ردّ عليها القاضي: «لأن النص القرآني أوضح بشكل مفصل الوارثين، وحالة أولادكِ لا تتضمن أنهم وارثين».

جادلته **فاطمة**: «ولا يوجد نص قرآني يقول بأن أولادي ليسوا وارثين! وهذا بكل بساطة لأن الله يخبرنا بأنهم لا ذنب لهم بموت والدهم قبل جدهم؛ لذا من الطبيعي أنهم سيرثون حصة والدهم؛ ولم يكن بحاجة لذكر أنهم لا يرثون لأنهم لم يجرموا بشيء حتى يُحرَموا من الورث. إنني أرى بالعقل والمنطق أن مسألة ورث أبنائي لحصة أبيهم حق فلا داع للوصية».

قال القاضي: «أرجوكِ يا سيدة اتركي مسألة العقل والمنطق جانباً، لأن النص الشرعي واضح».

أصرتْ على موقفها: «لو كان كلامكم صحيح لكان في النص القرآني آيات تقول بأن من يموت والده قبل جده فلا ورث له. صحيح بأن النص لم يقل بأنه يرث؛ وهذا لأنه شيء فطري فلا ذنب له بموت والده فلماذا سيحرم من الإرث؟».

تنهد القاضي، وأردف: «على مر الأزمان مرّ الكثير من العلماء الكبار، فهل تضنين بأن جميعهم سيغفلون عن كلامكِ هذا لو كان صحيحاً؟».

ردّتْ بنبرة كلها ثقة: «أجل، قد يغفل جميعهم عن ذلك! لأنهم في الأخير بشر معرضون للخطأ والغفلة. وشخص بسيط مثلي من عامة الناس قد يلهمه الله للقرار الصحيح في مسألة كهذه كان الجميع يتخذ القرار الخاطئ بشأنها».

ردّ القاضي: «لا داع لجادلكِ هذا لأنه في الأخير لن يجدي نفعاً، ولن يغير حكمي وقراري».

ثم وجه كلامه نحو **عبدالكريم**: «وأنتَ يا **عبدالكريم**، هم في نهاية الأمر أبناء أخيكَ، فلا بأس أن تعطيهم مما سترثه أنتَ وأخيكَ **ياسر**».

فقال **عبدالكريم**: «التركة ليستْ بالشيء الكبير سيادتكَ، فبالكاد ستكفينا لإنشاء مشروع نخطط له، وبالطبع بعد أن يبدأ المشروع بدرّ المال علينا فلن نبخل أبداً عنهم، فهم في الأخير أبنائنا».

سأل القاضي **فاطمة**: «هل تريدين قول شيء أخير سيدة **فاطمة؟**».

لحظتها باتت تنقم من القاضي، الحاضرين، والعالم كله لأنها ترى بأن الجميع يقف مع الظلم ضدها! لأنها ضعيفة فلا أحد سيقف معها، لأن العالم منافق يقف دوماً مع القوي.

أجابته بنبرة توحي بالاستسلام: «أجل، أريده أن يُقسم بالله».

القاضي مستغرباً: «وضحي مطلبكِ».

«أُريد أن يضع **عبدالكريم** يده على المصحف الشريف، ويحلف بالله العظيم بأنه لم يسرق الوصية، ولا يعلم عنها شيئاً».

لحظتها فزع **عبدالكريم!** فهو لم يكن يتوقع أن يصل الأمر للقسم بالله! وأردف القاضي: «وهذا من حقكِ سيدة **فاطمة**، فعلى المدعي البينة، وعلى المنكر اليمين».

ثم انتقل بكلامه نحو **عبدالكريم**: «هل أنتَ مستعد بأن تحلف يا سيد **عبدالكريم؟** وهناكَ خيار آخر، وهو أن ترفض ذلك وتطلب من السيدة **فاطمة** بأن تقسم هي بالله بأن والدكَ أعطاها الوصية ولكنها ضاعت أو سُرقَتْ، وبهذا ستأخذ نصيب أولادها من التركة. الخيار متروك لكَ في النهاية، إما أن تحلف، أو تجعلها تحلف هي، فما ردّكَ؟».

على الفور ردّتْ **أسماء** زوجة **عبدالكريم** قائلة: «بل هو من سيحلف. **عبدالكريم** مستعد لأن يحلف».

زجرها القاضي: «التزمي الهدوء يا سيدة، الكلام ليس موجه لكِ».

رمقتْ **فاطمة أسماء** بنظرة كلها استحقار، فلم تكن تتوقع يوماً أن الطمع سيحوّل **أسماء** لظالمة تؤيد زوجها في ظلمه، لا تأبه بدفع زوجها للحلف بالله باطلاً. وهي لا تعلم بأن **أسماء** هي الشيطان الأكبر الذي أوصل الأمور إلى ما هي عليه.

قال القاضي **لعبدالكريم:** «سوف نأخذ استراحة لنصف ساعة، وفي هذا الوقت شاور نفسكَ بأن تُقسِم، أو ترد القسم **لفاطمة**».

كان التردد واضح على **عبدالكريم**، فقالتْ له زوجته: «نحن مستقبلاً سنُعيد لهم حقهم فلا بأس بأن تُقسِم، إنه....».

قاطعها **عبدالكريم** بنظرة ذعر: «ولكني سأحلف بالله كذباً! ألا تستوعبين الأمر!؟ هل فقدتِ عقلكِ يا امرأة».

أيده **ياسر:** «بالفعل المسألة صارتْ مخيفة! فالحلف بالله كذباً إثم كبير!».

بموهبة المكر التي لم يكن يعلم عنها أحد، وأظهرها الطمع للخروج من حياتها القاسية ردّتْ عليهما **أسماء**: «نحن سنقيم مشروع يضمن مستقبلنا، فلا تدمرا كل شيء، ثم كما قلتُ مراراً وتكراراً نحن بهذه الطريقة كأننا نستلف منهم نصيبهم وحسب، بالإضافة أننا بهذا سنحفظ لهم مالهم حتى يكبروا ويصير بإمكانهم التصرف به، بدلاً من ان نعطيهم إياه الآن لأمهم كونها الوصية عليهم، وتقوم بصرفه على زاوجتها، ولا ينال أبناء أخيكما منه شيء».

رغم الخوف الذي استبد **بعبدالكريم** للحنث بالقسم استسلم في الأخير لوسوسة زوجته، ووافق على الحلف بالله باطلاً، وهو يحاول طمأنة نفسه بأنه في نهاية الأمر سيُعيد حق أولاد أخيه.

انتهتْ فترة الاستراحة، وعاد الحضور لقاعة المحكمة، ووجه القاضي سؤاله نحو **عبدالكريم:** «ماذا قررتَ؟ هل ستحلف أم تجعل زوجة أخيكَ هي من تحلف؟».

اغتسل جبينه بالعرق، وردّ والخوف جلي على محياه: «سوف أُقسِم». وأقسم بالله كذباً بأنه لم يسرق الوصية ولا يعرف عنها شيئاً. وأدركَ القاضي من تعابير الهلع التي كانت عليه بأنه حلف كذباً! ولكن ليس بيد القاضي شيء فهو لن يحكم **لفاطمة** بدون أدلة وقد حلف **عبدالكريم**. لذا حاول الضغط على **عبدالكريم:** «هل

أنتَ متأكد من قسمكَ يا **عبدالكريم؟** القسم بالله كذباً ليس بالأمر الهين، لن يبارك الله لكَ طوال حياتكَ».

وقفتْ **أسماء** وردّتْ عليه: «سيادة القاضي هل تتوقع بأن يحلف بالله كذباً؟ نحن لسنا فجاراً حتى....».

قاطعها القاضي وقد قلّب شفتيه غضباً واستياء منها لكلامها مرة أخرى بدون إذن، فقال لها مشيراً لها بسبابته محذراً بصوت أجش: «هذه آخر مرة تتكلمين فيها بدون إذن، مرة أخرى سأطردكِ خارج القاعة».

احمرّ وجهها إحراجاً لتوبيخ القاضي لها بتلك الخشونة أمام الجميع، فجلستْ وهي تقول: «كما تريد».

عاد موجهاً سؤاله نحو **عبدالكريم**: «ماذا قلتَ؟ هل أنتَ متأكد بأنكَ صادق تماماً في قسمكَ؟».

سرتْ في جسده رعشة خوف، وكان يتردد في إجابته، إلا أنه نظر إلى زوجته وأومأتْ له بعينيها فهم منها أنها تخبره بأن لا يتردد.

ابتلع ريقه وقال: «أجل، أنا واثق بأنني لم أحلف كذباً».

التفتْ القاضي نحو **فاطمة** وهو يرمقها بعين الرأفة والأسف، لأن حقها يضيع، فمن تعابير **عبدالكريم** يرى بأنه يكذب، ولكنه في نهاية الأمر قاضي لن يرجع لها حق لمجرد أنه يرى بأنها صادقة وهي لا تملك بيّنة: «ها قد حلف كما طلبتِ، هل من شيء آخر تريدينه؟».

أجابتْ: «نعم، أريد إلقاء كلمة أخيرة».

«تفضلي».

فأردفتْ شاخصة العينين بنبرة حقد: «يبدو بأنه قد تم رسمياً سرقة حق أولادي، أو ربما أنا من أضعته لأنني أهملتُ وضع الوصية في مكان آمن، لأنني وثقتُ بالناس الذين عشتُ معهم في نفس المنزل لسنوات. لقد أقسم عم أولادي بأنه لا حق لأولادي، ولا أملك دليل قاطع بأن لهم حق، ولكنني سأظل أتساءل ما حييتُ، ما الحكمة الإلهية التي على إثرها تم حجب أبنائي من التركة**!؟** هل....».

قاطعها القاضي: «منذ الصباح ونحن نخبركِ بأن سبب حجبهم موت والدهم قبل جدهم، ولوجود اعمامهم الذين يعتبرون الأصل من الجد فحُجب أبنائكِ لأنهم يعتبرون فرع من الجد وليس أصل، ولا توجد وصية تجعلهم يرثون».

أردفتْ **فاطمة**: «أنا لا أسأل عن سبب الحجب، بل ما الحكمة من ذلك؟ فبالتأكيد ربنا يُنزِل كل أمر لحكمة، فهل الحكمة هنا أن يجعل أبنائي فوق يُتمِهم فقراء؟ أم أن

الذنب ذنب أبيهم لأنه مات قبل أبيه؟ وكأنه كان بيده أن يموت متى ما يشاء؟ أنتم تقولون وتؤكدون بأن حرمان أولادي من الورث هو شرع الله، لذا سأتوقف عن عتابكم، لأنني سأعاتب الله».

تمتم الحاضرون، فمنهم من يستغفر الله على ما يسمعونه منها، ومنهم من يقول بأنها جُنّت بسبب خسارتها للقضية، وآخرون يعتقدون بأنها قليلة عقل ودين حتى تتجرأ وتقول بأنها ستُعاتب الله.

واصلتْ **فاطمة**: «نعم، سأعاتب الله، لأنه وضع قانون ظالم كهذا! لأنه ظلم أبنائي مرتين، جعلهم أيتاماً، وحرمهم من الميراث بجعلهم أيتام في وقت غير مناسب».

قال القاضي بنبر تحذير: « توقفي! فأنتِ تقولين كلاماً غير لائق على الله، وستكون عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة».

أضاف بنبرة هادئة: «قد تكونين مظلومة، ولكن مهما كان لن نسمح لكِ بالتعدي بكلام غير مؤدب على الله. لذا التزمي بذلك وإلا سأضطر لحبسكِ بتهمة التعدي بكلام فظ عن الذات الإلهية».

ردّتْ وهي تبتسم ابتسامة شاحبة وبنبرة مستاءة للغاية: «حسناً، سأسكت حتى لا تصيبني عاقبة وخيمة في الدنيا، لأنكم ترون بأنني أتعدى على الذات الإلهية. ولكني سأظل أعاتبه بيني ونفسي حتى يقوم بإلهام أحدكم بأنه لم يخبركم أن تحرموا الأيتام ورثهم لمجرد أنه أخذ أبيهم قبل جدهم، لأنهم لا ذنب لهم بموت أبيهم مبكراً حتى يصيروا أيتاماً وفقراء. سأواصل معاتبته حتى يُحق الحق فلا يُظلم بعد أولادي اليتامى يتامى مثلهم».

※ ※※

كسب **عبدالكريم** القضية، فصارتْ تركة والده له ولأخيه **ياسر**. باعوا الورث وهو عبارة عن المنزل والمزرعة، وصاروا مستعدين للسفر **لبيروت**. وأثناء ذلك قال **ياسر** بنبرة كلها قلق: «لقد صرتُ خائفاً بأن لا يوفقنا الله في المشروع! لأننا خالفنا وصية أبينا، احتلنا على نصيب أبناء أخينا بالكذب، بل إنكَ حلفتَ بالله من أجل ذلك كذباً!».

ردّ **عبدالكريم** بنبرة لا تقل قلقلاً عن أخيه: «لا تجعلني أشعر بالذنب أكثر».

أضاف مبرراً لضميره: « ثم إننا سنكفّر عن كل هذا عندما نعيد لهم حقهم مستقبلاً، ألستُ محقاً؟».

أردف **ياسر**: «لماذا لا نأخذهم معنا يا أخي؟ نأخذ **فاطمة** وأولادها حتى لا يكونوا محتاجين لأحد هنا».

تنهد **عبدالكريم**، وقال: «أنتَ تعلم بأنه بالكاد ستكفي أموال الورث لإنشاء المشروع، وأنا وأنتَ وزوجتي أناس كبار سنتدبر قوت يومنا وسنصبر حتى يتحرك المشروع، وليس بإمكاننا منذ البداية أن نصرف على **فاطمة** وأطفالها الثلاثة، لذا فور أن يبدأ المشروع في در المال سوف نرجع لأخذهم، أو نعطيهم حصتهم. ثم إنهم بإذن الله سيعيشون في الوقت الراهن ميسورين مستورين، **ففاطمة** تشتغل ولم تكن يوماً بحاجة إلينا».

ذهب كلاً من **ياسر** وزوجة أخيه **أسماء** لتوديع **فاطمة**. وشرعتْ **أسماء** بالكلام قائلة: «لقد أكد لي **عبدالكريم** بأنه لن ينساكم، وفور أن يتحرك العمل في المشروع، سيأتي لأخذكم، أو سيعطيكم حصة زوجكِ المرحوم وأكثر، لذا لا تقلقي. وقد قال بأنه لولا أن هذا المشروع سيضمن مستقبل جيد للجميع لأعطاكم نصيب زوجكِ الآن».

اكتفتْ **فاطمة** برمقها باستحقار.

عقّب **ياسر**: «تأكدي بأنني بنفسي سأحرص على أن نعيد نصيب أولادكِ، لأنه بوصية أو بدونها لن نتركهم، لأنهم بمثابة أولادنا».

ردّتْ **فاطمة** بشيء من السخرية: «وكم سنوات ستمرّ حتى يبدأ مشروعكم بجني المال حتى تعيدوا حق أولادي؟ بل إنني واثقة بأنكم لن تعيدوا لأولادي حقهم، لأن مشروعكم سيُفلِس، لأنكم ستقيمونه بمالٍ حرام! مال سرقتموه من يتامى ضعفاء».

لحظتها انفعلتْ **أسماء**: «ما الذي تقولينه!؟ نحن لم نسرق شيء! وليس لأولادكِ حق، ولكننا رأفة ورحمة وشفقة منا سوف نعطي أولادكِ مالاً حالما يبدأ المشروع بالتحرك جيداً؛ أي أننا سنتصدق عليكم». وغادرتْ المكان.

أردف **ياسر** بنبرة استجداء وكأنه يحاول بذلك جعل **فاطمة** تسامحهم حتى يبارك الله مشروعهم: «أرجوكِ يا **فاطمة** لا تحقدي علينا، لتكن دعواتكِ معنا حتى....».

قاطعته وهي تغادر المكان: «بيننا وبينكم الله يوم الموقف العظيم».

※ ※※

«هناك شخص مصري أخبرني بأنه تم إقرار قانون في **مصر** يُسمى الوصية الواجبة[1]، هذا القانون يخدم الأولاد الذين يموت أبيهم قبل جدهم، فالقاضي يحكم لهم بحصة من الورث حتى لو لم يوصي لهم جدهم بشيء».

ابتسمتْ **فاطمة** ابتسامة تشي بالسخرية، وقالتْ: «لم توفق أبداً هذه المرة في المواساة يا **غسان**، فهل كلامكَ هذا سيغير شيء؟ لنفترض حتى أنه تم سن هذا القانون اليوم هنا؛ هل سيعود حق أولادي؟».

حكّ **غسان** صدغه وهو يقول مبتسماً: «معكِ حق في ذلك».

ثم استطرد: «بالمناسبة لقد وجدتُ لكِ ولأولادكِ منزل صغير، إيجاره مناسب، المنزل يحتوي على غرفة وحمام ومطبخ».

«لا أعرف كيف أشكركَ، فالذي اشترى منزلنا طلب منا إخلاء المنزل نهاية الشهر».

مدّ لها **غسان** بظرف، فسألته: «ما هذا؟».

أجابها: «هذا بعض المال تعينين به نفسكِ حتى تستقر أوضاعكِ».

رفضته قائلة: «تسلم كثيراً، ولكنني أملك بعض المال الذي سيكفي على الأقل لتسديد إيجار المنزل لمدة سنة، هذا مال كنتُ أجمعه منذ زمن من عملي، ثم إنني أعمل ولن ينقصني شيء إن شاء الله».

أضافتْ مبتسمة: «أعد هذا المال لجيبكَ، واجمع فوقه حتى نتمكن من الزواج في أقرب فرصة، أم أنكَ لم تعد مستعجل لذلك؟».

ردّ بكل حماس: «لستُ مستعجلاً؟ اللهفة تقتلني يومياً منذ أول يوم أحببتكِ فيه؛ لذا استعدي فقد باشرتُ منذ عدة أيام بتجهيز نفسي لذلك».

منذ البداية و**فاطمة** تشعر بالذنب بسبب **غسان**؛ فقد حارب عائلته لأنه يريد الزواج من أرملة تكبره في العمر ولديها ثلاثة أولاد، وبعد أن يأسوا من ثنيه عن ذلك؛ صار يحاول إقناعهم بتأخير الزواج حتى تستقر حياتها، وهم يريدون رؤيته عريساً ويحملون أولاده بسرعة، خصوصاً وأنه الذكر الوحيد في العائلة.

[1] فرض قانون الأحوال الشخصية السوري الوصية الواجبة عام ١٩٥٣م، وكما هو موضح فأحداث هذه الرواية تدور قبل هذا التاريخ.

في البداية كانت **فاطمة** تحاول صرف **غسان** عنها بطريقة غير مباشرة لشعورها بالأسف تجاهه، حتى ترضي ضميرها وحسب، ولم تكن تفعل ذلك بطريقة مباشرة لأنها من داخلها لا تريد أن يتركها فمعه تشعر بالأمان. أما الآن فلم تعد تحاول صرفه عنها بأي شكل، فقد صارتْ متعلقة به بشدة، قد شغفها حباً، لم تعد تتخيل حياتها بدونه، معه اجتمع الحُبّ والأمان والاحترام فصارتْ تتمسك به بكل الطرق الممكنة.

بعد مغادرة **غسان**، حدّثتْ **فاطمة** نفسها متسائلة: *«لقد سامحتُ قاتل أبي فتركته يواصل حياته، ولم أمسكه وأجعل حبل المشنقة يلتف حوله حتى يوفقني الله بأخذ حق أولادي، ولكنني خسرتُ! هل أمر مسامحتي له لم يكن كافٍ؟ هل تستمر خسائري ومعاناتي لأنني أنا فعلاً مَن قتلتُ أبي!؟»*.

وقطع حبل تفكيرها دخول رجل، وفور أن التقتْ أعينهما ابتسم الرجل، أما **فاطمة** لم تصدق ما تراه فشهقتْ! لم تفكر للحظة بأنه بعد مرور كل هذه السنوات سيعود لها!. .

الفصل الخامس

ظلتْ **فاطمة** صامتة، لم تستوعب بعد أن الواقف أمامها ملاكها المخلِّص! زوجها الأول **عامر يحيى!** مضتْ ستة عشر سنة منذ رحيله عنها. تركها بعد أن خسر كل ما يملك، تركها لأنه لم يكن يريد أن تشاركه البؤس الذي صار فيه، كان ذلك لأنه يحبها، فقد رأى بأنها ستجد رجل ميسور الحال لا تخاف معه من شقاء الحياة. ووجدتْ بالفعل رجل ميسور الحال كفاها خوف الموت جوعاً، والنوم على الرصيف، والمحاربة حتى لا ينهش جسدها ذوي الشهوات الدنيئة. ولكنه بالمقابل جعلها تكره الحياة، تكره نفسها، تتمنى كل لحظة الحصول على فرصة للتخلص منه.

اقترب **عامر** منها أكثر وقال مبتسماً: «لماذا تبدين متلّبدة هكذا؟ أنا لستُ شبحاً، اقرصيني إن أردتِ التأكد».

بعد أن امتصتْ الصدمة واستوعبتْ الأمر، سألته: «أين كنتَ؟ ولماذا عدتَ؟».

ردّ بنظرة آسرة: «لقد كنتُ في **العراق**، وجئتُ كي يمس كفكِ خدي حتى أنسى التعب الذي عشته طوال سنوات غيابي عنكِ. إنني أبحث عنكِ منذ عام».

بنبرة خيبة: «لقد تأخرتَ كثيراً، فقد صرتُ أمّاً لثلاثة أولاد».

هز رأسه فوقاً وتحتاً، وأردف: «أعلم ذلك، وأعلم أيضاً أنّكِ صرتِ أرملة، أي أنه لا يوجد مانع لأن نعود لبعض. وأولادكِ سأضعهم لأجلكِ في عينيَّ».

استفزّها كلامه، فقالت بنبرة حادّة: «لماذا تتحدث وكأنكَ واثق بأنني لن أعترض على طلبكَ؟ لعلمكَ يا واثق بأن ستة عشر عاماً فترة كافية لتغيير القلوب».

قال معتذراً: «صدقيني أنا لم أقصد ذلك، لقد كنتُ أعني بكونكِ أرملة أن ذلك من حسن حظي بأنه لا يوجد في حياتكِ رجلاً، ولكن يبدو بأن لساني خانني في صياغة الكلمات المناسبة».

كانتْ تتنفس بسرعة، قلبها ينبض بسرعة، مشاعرها مضطربة. سألته: «ما الذي كنتَ تقوم به طوال سنوات غيابكَ؟».

«كما تعلمين لقد كنتُ يائساً من حياتي، فقررتُ السفر لأي مكان بعيد، وسافرتُ **لبغداد**، وهناك التقيتُ بتاجر أقمشة، رجل طيب. شغلني عنده حتى مات بعد خمس سنوات، وكنتُ وقتها قد جمعتُ مبلغاً لا بأس به، والأهم أنني اكتسبتُ خبرة كبيرة في تجارة الأقمشة. وبالمبلغ الذي جمعته فتحتُ لي محل صغير لبيع الأقمشة، ومع مرور السنوات ازدهرتْ تجارتي، وكبر المحل، والآن الحمد لله صرتُ أملك عدة محلات في مناطق مختلفة في **بغداد**».

علّقتْ **فاطمة**: «ما شاء الله. يبدو بأنكَ الآن صرتَ ملاكي المخلِّص برتبة غنيّ، لأنكَ ستخلّصني من فقري بأخذي إلى غناكَ».

ابتسم قائلاً: «لقد ابتسمتْ لي الدنيا كثيراً، ولكن كل سعادتي دوماً ناقصة وأنتِ لستِ بجواري».

لعنتْ بينها ونفسها حظها! فبعد أن صارتْ مستعدة للارتباط **بغسان** من يغمرها حباً، وتبادله هي أيضاً ذلك، بعد أن انتهتْ الحواجز التي كانتْ تؤخر زواجها منه، ها قد عاد **عامر**! عاد لها من مكان بعيد للغاية، بحث عنها كثيراً، لأنه يحبها كثيراً، وقد صار ثرياً، ويتوسل لها أن تقبل به زوجاً. بعد أن كانتْ تبحث عن ملاك يحبها ويكون لها أماناً وحباً، ها قد صار أمامها ملاكين، وعليها فقط اختيار أحدهما، اختيار أصعب مما يتخيله أحد، فهل ترفض **عامر** ولا مجال للشك بعشقه لها وقد سافر لأجلها من بعيد؟ أم تتخلى عن **غسان** وقد ضحى لأجلها بالكثير؟

※ ※※

دخل **غسان** محل بيع الكتب فوجد **فاطمة** شاردة الذهن تماماً! فأخرجها من شرودها قائلاً وهو يبتسم: «أتمنى أن أكون من يشغل بالكِ، حتى تكونين هكذا شبه فاقدة الوعي».

بادلته الابتسامة: «لقد كنتُ أنتظركَ».

«خير لماذا؟».

توقفتْ عن الابتسام، وأخذتْ نفساً عميقاً، وأجابته: «لقد جاء **عامر**؟».

«ومن يكون هذا؟».

«هل نسيتَ اسمه؟ انه **عامر** زوجي الأول، الذي حدثتكَ عنه سابقاً، هل تتذكر».

لحظتها تكدر وجه **غسان!** وشعر باستياء شديد**!** فقد كان يغار بشدة من **عامر** عندما كانت تمدحه **فاطمة** فتقول بأنه كان بمثابة ملاكها، كان يغار منه ويشعر بالتكدر وهو واثق بأنه بعد كل هذه السنوات لن يعود، فكيف الآن وقد عاد**!**

حاول **غسان** أن لا تلاحظ **فاطمة** استيائه من الخبر، وقال: «وماذا قال لكِ؟ أين كان؟ ولماذا عاد بعد كل هذه الغيبة الطويلة؟».

أجابتْ: «لقد كان في **العراق،** وقد صار تاجراً كبيراً هناك».

توقفتْ، ثم أضافتْ: «وهو يريد أن يتزوجني، ويأخذني وأولادي معه لنعيش في **العراق**».

شعر **غسان** بغصّة في قلبه وهو يسمع ذلك**!** خصوصاً وأن نبرة **فاطمة** تدل أنها تفكر في عرض **عامر** لها، أو ربما قد اتخذتْ فعلاً قرارها بالعودة له. لحظتها تذكر رواية الليالي البيضاء التي نصحته بها ذات مرة، وأعجبه حبكتها، لقد أعجب بحبكة الرواية رغم أنها كانت قاسية تجاه بطلها، ولكنه لم يكن يتصور أن يكون يوماً في موقف بطل الرواية**!** لم يكن يتوقع أن يقع في مأساة البطل الذي كان يرى بأنها أفضل نهاية ممكنة جعلتْ الرواية جميلة. ربما لو كان يعلم وقتها بأن هناك احتمال لعودة **عامر** لما أعجبته الرواية؛ لأنه سيرى بأنها فأل شؤم عليه، سوف يكرهها كما يكرهها الآن، لكان أخبر **فاطمة** بأنها رواية سيئة لعودة البطلة لحبيبها السابق بعدما تعلق بها البطل.

ابتسم محاولاً بذلك إخفاء امتعاضه، وأردف قائلاً: «لقد قررتُ منذ البداية أن أدعمكِ في كل قرار تتخذينه، شرط أنه في مصلحتكِ ولن يؤذيكِ. وسأظل أدعمكِ في أي قرار حتى لو كان قرار الافتراق عني. لقد عاد **عامر،** وقد صار كما تقولين غنياً، لذا سوف يجعلكِ تخرجين أخيراً وبسرعة من حياة الشقاء. وبالتأكيد لا يزال يُحبكِ؛ فهو لم يكن ليسافر كل هذه المسافة ويبحث عنكِ كثيراً إلا وهو يكن لكِ حُبّاً عظيماً».

لم تكن تصدق **فاطمة** أن يقول هذا الكلام بكل بساطة**!** كانتْ تتوقع أن لا يقول هذا الكلام إلا بعد أن تخبره بشكل مباشر بأنها تريد العودة **لعامر**. وهي ترمقه بنظرة استغراب سألته: «هل تعني بأنكَ لا تعترض على أن أتركَكَ وأذهب معه؟».

أدركَ بأنه استعجل في كلامه السابق، ولكن لا مجال للتراجع الآن فردّ مكابراً: «إذا كنتِ تشعرين بأنكِ ستتمكنين من إعادة مشاعر حبكِ له، فبالتأكيد من شدة حبي لكِ لن أعترض، خصوصاً وأن ذلك يعني بأنكِ سترتاحين مادياً ومعنوياً، وأنتِ تستحقين أكثر من ذلك».

متسائلة: «هل هذا الكلام فعلاً من قلبكَ؟ ألن تكرهني وتحقد عليَّ لأنني سأعود بكل بساطة **لعامر** بعد كل ما قمتَ به لأجلي؟ لقد كنتَ واقف معي دائماً، حتى أنكَ تنتظرني بدون كلل أو ملل حتى يأتِ الوقت المناسب لزواجنا، وحالما.....».

قاطعها: «لا داعي لجلد نفسكِ، تأكديّ بأنني أقول هذا من كل قلبي، ولا أشعر بأي ضغينة تجاهكِ، بل إنني أشعر بالسعادة لأجلكِ».

علّقتْ **فاطمة**: «عيناكَ تخبرانني بأنكَ تكذب». وقد كانتْ مُحقة.

مصرّاً على كذبته ومؤكدها باليمين: «أقسم بأنني لا أكذب. لأني أُحبكِ فلن أقف لحظة في طريق سعادتكِ».

شعر بالهواء ثقيل من حوله، فتحجج كي يغادر: «لديَّ موعد مهم الآن لذا يجب أن أغادر».

وتوجه مغادراً المكان، وهو يشعر باختناق قلبه. وقد بدأ يكن الضغينة تجاه **فاطمة!** فقد تخلت عنه بكل بساطة! كان يجب عليها على الأقل أن تبذل الكثير من الجهد وهي تخبره بالانفصال عنه احتراماً للمشاعر والمواقف التي كانت بينهما. اغتاظ لأنها لم تكن حتى محرجة وهما يتحدثان! كأن انفصالها عنه شيء طبيعي متوقَع.

※ ※※

وصل **غسان** لباب المحل مغادراً، فتفاجأ باحتضان **فاطمة** له من الخلف! لتمنعه من المغادرة. وأردفتْ قائلة: «أنا آسفة كثيراً».

رغم مشاعر الحقد التي بدأ بتكوينها تجاهها إلا أن حبه الشديد لها لم يكن ليسمح له أن يجعلها تشعر بالذنب تجاهه، لم تسمح له نفسه بأن يسبب لها الأذى مهما كانت الأسباب. ردّ عليها: «لا داع لأن تشعري بالأسف. فأنا لن....».

قاطعته: «أعتذر لأنني كذبتُ عليكَ».

أردف قائلاً: «لقد أخبرتِني مسبقاً بأن **عامر** أكثر رجلاً أحببتِه، لذا بصراحة كنتُ أغار منه رغم أنني حينها كنتُ شبه متأكد بأنه لن يعود، لذا كنتُ أتمنى أن أتمكن من جعلكِ تنسينه بأن تحبينني أكثر منه، ولكن يبدو بأنني لم أتمكن من ذلك، فحالما عاد عاد قلبكِ فوراً له، بل بالأحرى قلبكِ كان معه دوماً فمن الطبيعي أن تعودي له بدون تردد وتفكير، لذا لا داع لأن تعتذري لي، فليس عليكِ ذنـ....».

قاطعته مرة أخرى: «أنا أعتذر لأنني كذبتُ عليكَ بأن جعلتكَ تشعر بأنني سأعود **لعامر**».

أبعد ذراعيها عن خصره، والتفت نحوها مدهوشاً! وسألها: «ماذا تعني؟».

أجابتْ مبتسمة: «لقد كنتُ فضولية لأرى ردة فعلكَ وحسب عندما أخبركَ بأنني سأعود **لعامر**، وأتخلى عنكَ. وقد كبرتَ في عيني وقلبي كثيراً؛ لأنكَ كابرتَ نفسكَ وأنتَ تحاول أن تجعلني أرى انكَ سعيد لأجلي، وتحاول إخفاء أنكَ لستَ مغتاظ ومستاء لأنني سأتخلى عنكَ؛ حتى لا تجعلني اشعر بالاستياء والذنب بسببكَ».

تنفس **غسان** الصعداء، وشعر بأن روحه عادتْ إليه. كأن شخص أيقظه من كابوس كان يجثم على صدره. شعر لحظتها بأن كل شيء في العالم يبتسم له، أناس كانوا أو حيوانات حتى الجمادات.

سأل وهو يبستم من الأذن للأذن: «هل كنتِ فقط تختبرينني يا شيطانة؟ ولم يأتِ إليكِ **عامر** بالأساس؟».

ردّتْ: «لقد جاء بالفعل، وطلب مني أن أعود له، وأسافر معه. ولكنني لم آخذ إلا القليل من الوقت في التفكير ووجدتُ بأنني لستُ محتارة بين الاختيار بينكَ وبينه، فقد اخترتكَ بدون أدنى شك. لقد أخبرته بأنني سأظلمه إن عدتُ معه؛ لأن كل قلبي سيكون مع رجل غيره، ولا أستطيع أن أتخيل حياتي بدونه، وهذا الرجل بالطبع أنتَ يا **غسان**».

تابعتْ شاخصة العينين: «لقد عشتُ مع **عامر** سنة واحدة، وكانت مليئة بالحب والسعادة. لكن بالمقابل أنتَ كنت واقف معي دوماً وتعلم منذ البداية بأنكَ ستعاني كثيراً حتى نكون معاً. كنت تعلم بأنكَ ستحارب عائلتكَ لأنكَ ستتزوج أرملة لديها ثلاثة أولاد، وأنتَ لا زلتَ بكراً. لم تمل أو تكل وأنا أؤخر كل فترة وأخرى موعد زواجنا بسبب مشاكلي التي لا علاقة ولا ذنب لكَ بها، وانتظرتني ولا تزال تنتظر بصدرٍ رحب وبكل حُبّ. فهل تعتقد بأنكَ بعد كل هذا لن يحتل حُبّكَ أعماق قلبي!؟ هل تتصور بأن الاغراءات المادية قد تساهم في عودتي لحبيبي الأول بعد كل التضحيات التي قدمتها لأجلي!؟ والتضحية دوماً أثمن من العطاء. لستُ بلا قلب أو عقل حتى أفكر مجرد تفكير بالتخلي عنكَ».

سرتْ رعشة في جسده لشدة فرحه، لمعتْ عينيه سعادةً. لم يعش لحظة رائعة للغاية كهذه، شعر لحظتها بأن العالم كله ملكه.

نظر لها بابتسامة واسعة وهو يقول: «سأفعل شيء أعلم جيداً بأنكِ ترفضين السماح لي بفعله قبل أن نتزوج، ولكن أعدكِ أن أقوم به هذه المرة فقط ولن أكرره إلا بعد الزواج».

وضعتْ يدها على فمها حتى لا تسمح له بتقبيلها. تقدم نحوها واحتضنها بقوة وكان يعتصرها من شدة سعادته وهو يقول: «لقد كنتُ أود أن أحتضنكِ وأقبلكِ، ولكن لا بأس سأكتفي بضمكِ إليَّ».

ردّتْ وهي تلوك الكلام من شدة الحياء وتحاول إبعاده عنها: «اتركني بسرعة.... قبل..... أن أقتلكَ! لقد أخبرتكَ بأن..... الأحضان وأي تلامس بيننا ممنوع قبل أن تصير زوجي».

تركها وقال مبتسماً: «حسناً سأكتفي بهذا الحضن، ولكن أعدكِ بأنه في أول عناق لنا عندما نتزوج لن أتركِ حتى أمزق أضلعكِ عقاباً لجعلكِ هذا الحضن قليل المدة».

لا يزال وجهها محمراً لخجلها، فألقتْ طرفة تحاول بها تلطيف الجو حتى بتبدد خجلها ولا يلاحظ **غسان** ذلك: «من الجيد أنكَ أخبرتني بهذا الآن، حتى أعمل حسابي على ارتداء درع واقي للحفاظ على أضلاعي».

قهقه **غسان**، ثم أردف: «حتى لو كان الدرع كسد ذي القرنين تأكدي عناقي سوف يحطمه».

※ ※※

توفي منذ أسبوع مالك محل بيع الكتب الذي تعمل فيه **فاطمة**، وأخبروها أولاده بأنهم سيبيعون المحل، لذا بحثتْ كثيراً عن عمل آخر. طافتْ المدينة كلها، ولكن دون فائدة، لم تجد أي عمل. فمن الصعب لامرأة مثلها لا تحمل شهادات أو خبرات أن تجد عمل.

بكت من التعب، لم تعد تقوى على حبس دمعها. فكيف لها أن تُطِعم أطفالها، إضافة لدفع إيجار المنزل، والمال الذي لديها والذي كان يكفي لإيجار سنة سينتهي بسرعة على الطعام، هذا يعني بأنها بعد فترة ستكون معرضة وأولادها للجوع والنوم على الأرصفة.

توجهتْ عائدة للمنزل، وعندما وصلتْ رأتْ **غسان** يأتِ من جهة المنزل، وفور التقائهما سألها: «أين أنتِ مختفية؟ أسبوع كامـ....» قطع كلامه عندما رأى تعابير وجهها الكئيبة الحزينة، فقال: «تبدين تعبة! ما الذي يجري؟».

حكتْ له ما جرى معها، وعن مخاوفها، فقال: «وأنا أقول لماذا لم أستطع إيجادكِ منذ أكثر من أسبوع! وكنتُ أتساءل لماذا محل بيع الكتب مغلق».

تابع بنبرة عتاب: «ثم أي حمقاء أنتِ! كيف تصابين باليأس وتتمنين الموت وأنا موجود!؟ هل كنتِ تتوقعين بأنني سأتركُكِ وأولادكِ تموتون جوعاً أو تبيتون على أرصفة الشوارع!؟».

ردّتْ وعينيه مغرورقتين بالدمع: «لقد أرعبتني فكرة أنني قد لا أتمكن من إيجاد عمل لذا لا أتمكن من إطعام أبنائي، ولكن بعد أن هدأتُ تذكرتكَ، فانزاحتْ السوداوية التي كنتُ فيها».

ابتسم قائلاً: «بما أنني موجود فيُمنع عليكِ منعاً باتاً أن تشعري بالقلق، ابحثي عن عمل براحتكِ، حتى إذا لم تجدي عملاً فلا بأس، سأتدبر أنا كل شيء، لأنه في الأخير مسألة عملكِ مجرد مسألة وقت وحسب، فبعد أن نتزوج وتستقر أمورنا، ستتوقفين عن العمل، وتقعدين في المنزل معززة مكرمة، كل ما عليك هو الطبخ وتربية أولادنا».

غمز بعينه وهو يُضيف: «وبالطبع سيكون أهم أعمالكِ هو التزين في الليل؛ حتى....».

قاطعته بعد أن ضربته على كتفه قائلة: «لا أسمح لكَ بهذا الكلام قبل أن أصير زوجتكَ».

فانفجر ضاحكاً، وبعد أن توقف عن الضحك قال بنبرة ساخرة: «لقد يئستِ من الحصول على عمل لمجرد أنكِ بحثتِ لمدة أسبوع!؟ هل كنتِ تعتقدين بأنه من السهل إيجاد عمل؟ نحن نظل عدة أشهر نبحث عن عمل يا سيدة **فاطمة**».

ردتْ: «لحظتها شعرتُ بالظلام يسود حياتي! لذا ربما بالغتُ في ردة فعلي».

استطرد **غسان**: «بكل الأحوال يجب عليكِ أن تكوني على أتم الاستعداد».

«لماذا؟».

أجابها مبتسماً: «لأنني قريباً سأخطبكِ رسمياً».

※ ※※

يبدو بأن سعادة **فاطمة** لا تدوم طويلاً حتى ينغصها أمر ما! فلم يمر على خطبتها الرسمية من **غسان** سوى عشرة أيام، وها هي الآن تقف في المشفى بعد أن مرضتْ ابنتها فجأة! وصل **غسان** وسألها: «ما الذي حدث؟».

أجابتْ بقلق وهي تشبك أصابعها: «**فايزة! فايزة** يا **غسان**».

«ماذا جرى معها؟».

كانتْ ترتعش خوفاً! فهذه أول مرة تُسعِف أحد أبنائها للمشفى. رغم كل قسوة الحياة والخوف الذي تعيشه فهو لا يقارن بخوفها الآن، فحبها لأولادها لا يمكن تصوره، فسوف تفدي بنفسها لأجلهم دون تردد.

«لقد شعرتْ بوجع في صدرها بشكل مفاجئ! ثم أغمي عليها!».

«وماذا قال الأطباء؟».

«لا يزال الطبيب يفحصها، ولم يخرج بعد».

كانتْ تنتظر خروج **الطبيب** الذي يفحص ابنتها على أحر من الجمر، وعينيها كلها ذُعر، **وغسان** يحاول تهدئتها لكن بدون فائدة.

حالما خرج الطبيب هرعتْ نحوه **فاطمة**، وتبعها **غسان**. سألته **فاطمة** بنبرة استجداء كأنها تطلب منه أن يخبرها بأن كل شيء على ما يرام: «كيف حال ابنتي؟».

نظر الطبيب نحو **غسان** وسأله: «مَن تكون؟».

«أنا خطيبها» أجاب **غسان** وهو يُشير نحو **فاطمة**.

أردف الطبيب يشرح حالة **فايزة**: «لدى الطفلة عيب خُلقي في القلب، وتحتاج لعملية جراحية».

وضعتْ **فاطمة** يدها على صدرها وهي تسأل بفزع: «هل ابنتي في خطر كبير؟ هل ستتحسن بعد إجراء الجراحة؟».

ردّ الطبيب: «يجب أن أخبركم بأن الجراحة مكلفة، و....».

قاطعه **غسان**: «لا يهم التكاليف، المهم أن تصير الطفلة بخير».

عقّب الطبيب: «من واجبي أيضاً أن أخبركم بأن نسبة نجاح الجراحة ليس كبيراً».

فأردفتْ **فاطمة**: «ولكن عدم إجراء الجراحة سيجعلها بالتأكيد تموت، أليس كذلك؟ لذا سنجريها مهما كلفتْ، حتى لو بعتُ نفسي».

الطبيب: «أنا لا أقول بأن لا نجريها لأنها مكلفة ونسبة نجاحها صغيرة، ولكنني أوضح لكم الأمر، بأن جراحات كثيرة لا تنجح كثيراً، حتى تكونوا مستعدين إن....».

قاطعته **فاطمة** بشيء من الانفعال: «أنا واثقة بأن طفلتي مثلي قوية، لذا ستنجو من الجراحة، أنا متأكدة. لذا حدد أسرع موعد لإجراء الجراحة».

وضع **غسان** يديه على كتفيها بعدما رآها منفعلة قائلاً: «اهدأي كل شيء سيكون على ما يرام».

حدد لهم الطبيب موعد بعد يومين لإجراء الجراحة. سأل **غسان فاطمة**: «كم لديكِ من المال؟».

أجابتْ: «لديَّ المال الذي جمعته من عملي في محل بيع الكتب».

مد لها بعض المال: «وهذا مني».

لم تمد يدها قائلة: «لن آخذه، هذا المال الذي تجمعه من أجل زواجنا. سوف أدبر نفسي، فارجع مالكَ».

أمسك بكفها ووضع المال بها وهو يقول: «هل تعودين لحماقتكِ**!**؟ هل سأدعكِ تبحثين عن المال وأنا موجود».

تابع مبتسماً: «ولا بأس بأن نؤخر زواجنا قليلاً، لقد تعودنا على ذلك».

بادلته الابتسام: «شكراً للقدر لأنه جمعني بكَ».

※ ※※

يواصل **غسان** محاولاته لتهدئة **فاطمة** وهي تبكي خوفاً على ابنتها التي في غرفة العمليات منذ خمس ساعات. وبعد أن هدئتْ قليلاً وتوقفتْ عن البكاء، أو بالأحرى لم تعد تقدر على البكاء، نظرتْ إليه غائرة العينين: «أعتقد أن كل ما أعانيه طوال حياتي هو أنني لم أكفر عن ذنبي**!** ذنب قتلي لأبي».

صُعِق **غسان** مما يسمعه**!** وسألها مذهولاً: «ما الذي تعنيه بذلك؟».

ابتعدتْ عنه قليلاً وأردفتْ: «في ذلك اليوم لم يكن صاحب البقالة يكذب، فهو فعلاً أعطاني الباقي وأنا أضعته، وكذبتُ وأخبرتُ أبي بأنه لم يعطني شيء، وسبب كذبي أنني كنتُ دوماً أخشى من قسوة أبي، فهو يضربني لأتفه الأسباب، فكيف وقد أضعتُ مبلغاً ليس بسيطاً من المال. فلم يكن أمامي سوى الكذب. لكنني لم أكن أتوقع أن يؤدي ذلك لجريمة قتل. يومها عاتبتني أمي لأنني لم أكذب وأخبر أبي بأنني من أضعتُ المال، لم تكن تعلم أنها كانت تعاتبني لأنني لم أقل الحقيقة».

تنفس **غسان** الصعداء، وقال: «الله يسامحكِ لقد أفزعتني**!** لقد اعتقدتُ بأنكِ بيديكِ قتلتِ والدكِ».

نظرتْ **فاطمة** نحو **غسان** بنظرة واهنة: «بكذبي قتلتُ أبي**!** لقد سامحتُ القاتل لأنني شعرتُ بأنني من قتلتُه. تراجعتُ عن احضار الشرطة لأنني رأيتُ بأنه مظلوم نوعاً ما بسببي، كنتُ أعتقد بأن مسامحتي له سيُغفَر ذنبي، وتتيسر أمور حياتي، فأتخلص من معاناتي التي لا تفارقني. لقد قتلتُ أبي وتسبب ذلك بمعاناة وأسى كبيران لأمي، وتسببتُ في تشرّد قاتله، لذا يبدو بأنني أستحق كل أوجاعي».

وضع **غسان** كفيه على خديّ **فاطمة**: «ما الذي تقولينه**!؟** أنتِ لا ذنب لكِ، لقد كنتِ طفلة، وقسوة أبيكِ هو ما جعلكِ تكذبين، أي أن سبب كل ما جرى بعد ذلك هو ظلم وقسوة أبيكِ. ثم وإنه مما عرفته من حديثكِ أن والدكِ كان دائم الشجار مع الناس، لذا كذبكِ عليه يومها لم يكن السبب الذي جعله يتشاجر ويُقتَل».

واصل **غسان** طمأنتها وتهدئتها محاولاً إخراج الوساوس التي بداخل عقلها: «أنتِ لم تنوين قتله، ولم تحرضي على ذلك، لذا أنتِ بريئة من كل ما يدور في عقلكِ. شخص كأبيكِ دائم الشجار من الطبيعي أن يُقتَل على يد شخص في مشاجرة. فتوقفي عن لوم نفسكِ، فمثلاً لو كان لديَّ طفل وقام بتصرف خاطئ، فقمتُ بتوبيخه، فخرج من البيت حنقاً، ولأي سبب مات، فهل سألوم نفسي لأنه خرج من المنزل بسببي**؟** هل عدم توبيخي له كان سيجعله يجلس في المنزل دائماً فلا يموت**!؟** بالطبع لا. وهكذا قول الحقيقة لم يكن ليمنع والدكِ للأبد عن الشجار، فالشجار يجري في دمه، وربما كان سيلقى حتفه في أحدها».

أضاف بعد أن أخذ نفساً: «أما تركِكِ لقاتل أبيكِ وشأنه لابد وأن تؤجرين على ذلك».

«لقد تركته لشعوري بالذنب بأنني سبب ارتكابه للجريمة، رأيتُ بأنني تسببتُ في تشرده عن أهله طوال حياته، وبتركي له كنتُ أريد مقابل ذلك أن يوفقني الله بأخذ نصيب أولادي، ولكن يبدو بأنني كنتُ بهذه منافقة أو أي شيء آخر سيء لأنني خسرتُ القضية».

«هل تقولين بأن لا أجر لكِ عندما سامحتِ قاتل أبيكِ بعدم تسليمه للشرطة لأنكِ خسرتِ قضية ورث أبنائكِ**؟** لعلمكِ لا يشترط أن تأخذين أجركِ بسرعة، فربما رأفة ورحمة الله بكِ أخر جزائكِ لأمر أكبر من الورثة، كأن ينقذ حياة ابنتكِ اليوم، أليس هذا جزاء أكبر مما خسرتِه**؟**».

تهلل وجهها قليلاً وهي تومئ برأسها بمعنى أجل.

ثم أردفتْ بنبرة حاقدة وهي تتحدث عن والدها: «أتعلم بأنني في اليوم التالي لمقتله؛ شعرتُ بأنني قمتُ بعمل جيد! كنتُ أعتقد أن كذبتي أنقذتني وأمي من جبروت أبي! ولكنني كنتُ أشعر بنفس الوقت بالأسف لأن صاحب البقالة هرب وتشرد بسببي. وبعد أن عشتُ المعاناة الشديدة بعد ذلك صرتُ أرى وأعتقد بأن أبي ظالم للغاية! فلا بحياته رحمنا، ولا بمماته ارتحنا، فازداد كرهي له أكثر وأكثر».

«بكل الأحوال الميت لا تجوز عليه سوى الرحمة، المهم.....».

قاطعته بنبرة حادة: «من هم مثل أبي لا يستحقون الرحمة! لقد كنا نعيش معه في جحيم! يجب أن تتخيل الحجم الكبير لكره طفلة لأبيها حتى تشعر ولو للحظة بالراحة حين يموت! في الآونة الأخيرة أشعر بالذنب لأنني تسببتُ بقتله، ليس لأنني حزينة لمقتل شخصه، بل لأن موته تسبب بمعاناة أكثر لي ولأمي. وأيضاً شعرتُ بالذنب لأن قاتله أضاع حياته هرباً بسببي. أما أبي لشخصه لم أحزن لموته أبداً».

تابعتْ وقد شرع دمعها بالنزول: «الأب يعني الأمان، فكيف يكون كذلك عندما تشعر بسببه أنكَ في مستنقع الخوف!؟ إنه أكثر شخص أكرهه في حياتي! فلا تخبرني بأن شخص مثله يستحق الرحمة لأنه وحسب مات».

※ ※※

بعد مرور شهرين

لم تكل أو تمل **فاطمة** وهي تبحث عن عمل، فقد صارتْ في أمسّ الحاجة لذلك، فبجانب مصاريفها ومصاريف أولادها وإيجار المنزل، أضيف فوق ذلك ثمن دواء طفلتها، فالطفلة بحاجة لأدوية غالية الثمن لمدة سنة بعد إجرائها للجراحة. لقد صارتْ خجلة وهي تتلقى المال من **غسان**، مما يجعله يؤخر زواجه منها، ويتلقى اللوم من أهله، لذا كانت كل يوم تخرج للبحث عن عمل.

وذات يوم كانتْ داخل أحد محلات بيع الحلوى، تسأل صاحب المحل عن إمكانية العمل عنده، لكنه اعتذر منها، وكان هناك رجل يشتري حلوى، وفور أن غادرتْ المحل، تبعها الرجل واستوقفها: «هل لي ببعض من وقتكِ».

التفتْ له، وسألته: «ما الذي تريده؟».

ردّ الرجل: «أنا **حسان خيري**، وقد سمعتُكِ وأنتِ تسألين صاحب المحل عن إمكانية العمل عنده. هل أنتِ بالفعل بحاجة ماسّة للعمل؟».

ردّتْ **فاطمة**: «أجل، فلديّ ثلاثة أطفال يجب عليَّ إطعامهم».

سألها: «وأين والدهم؟».

«لقد توفي».

مبتسماً: «هذا جيد».

لم تفهم سبب ابتسامته عندما أخبرته بأن والد أطفالها متوفي**!** فأثار بذلك الريبة في نفسها**!**

سألته مستغربة: «ما الجيد في الأمر حضرتكَ؟».

استدرك بأنه كان أحمق بكلامه، فقال محاولاً تصحيح الأمر: «من الجيد أنكِ التقيتِ بي، لأنني قد أتمكن من إيجاد عمل لكِ. ولكن يجب أن تكوني بحاجة ماسّة لذلك؟».

مع حديثها أكثر معه كانت ترى بأنه يقول كلام غريب**!** مثير للشك والريبة**!**

«ولماذا يجب أن أكون بأمسّ الحاجة للعمل**!؟**».

أجابها: «حتى أكسب أجر كبير، حينما أساعد العائلات المحتاجة كثيراً».

ارتاحتْ له بعض الشيء بعد أن وضح كلامه.

عقّبتْ **فاطمة**: «إنني بالفعل محتاجة كثيراً للعمل، لذا سأكون ممتنة لكَ كثيراً إن وفرتَ لي ذلك».

«حسناً يا....».

قطع كلامه سائلاً: «بالمناسبة لم أتعرف على اسمكِ بعد؟».

«اسمي **فاطمة، فاطمة أحمد**».

«تشرفنا سيدة **فاطمة**. سوف أكتب لكِ عنوان تقابليننني فيه بعد يومين».

وكتب العنوان في ورقة، وأخذتها منه، ثم سألته: «لم تخبرني بعد عن نوعية العمل؟».

مبتسماً: «سوف أخبركِ حين نلتقي، ولكن كوني مطمئنة، فالعمل ليس به مشقة، وذو دخل وفير، وفوق كل هذا ستستمتعين به».

التقتْ **فاطمة بغسان** والفرحة جلية عليها، فقال لها: «السعادة تشع من عينيكِ، أسعديني معكِ».

فقالتْ: «لقد وجدتُ عملاً».

«هذا خبر رائع! ما نوع العمل؟».

«سوف أقابل الرجل الذي عرض عليَّ العمل بعد يومين ليخبرني بكل شيء. لكنه أخبرني بأنه سيكون عمل ممتع وليس به مشقة».

※ ※※

التقتْ **فاطمة** على الموعد **حسان خيري**. فأخذها لأحد المنازل، وكان طوال الطريق يأكلها بنظراته من أسفل جسدها حتى أعلاه. عندما وصلا للمنزل سألته: «هل العمل هنا؟».

أجاب: «أجل، سوف تعلمين هنا مع عدة نساء أُخريات».

دخلا المنزل، فتوجستْ **فاطمة** متسائلة: «لقد قلتَ بأنني سأعمل هنا مع نساء، ولكن يبدو بأنه لا يوجد في المنزل أحد!؟».

بنبرة خبيثة: «سوف يحضرن بعد ساعة أو بالأكثر بعد ساعتين، لذا سننتظر قدومهن وأثناء ذلك سأخبركِ بتفاصيل العمل».

خرجتْ على الفور من المنزل، بعد أن اقشعر بدنها قلقاً! فقد شعرتْ بأن نية الرجل ليستْ نظيفة! لحقها لخارج المنزل واستوقفها، وسألها: «ما الذي جرى؟ هل ارتكبتُ خطأً؟».

ردّتْ وهي تشبك أصابعها قلقاً: «من الأفضل أن أعود عندما تكون النساء موجودات، فلا يصح أن أبقَ معكَ بمفردنا في المنزل».

أردف محاولاً طمأنتها: «لا تقلقي، لن يحدث شيء. سوف تلعبين بالمال لعباً وأنتِ تعملين معي، لن تقلقي يوماً على مصاريفكِ أو مصاريف أولادكِ».

أضاف بعد أن عض بأسنانه شفته السفلى: «صدقيني سوف ترتاحين كثيراً معي، كل يوم سوف تكسبين الكثير من المال السهل».

※ ※※

بعد عدة أيام ذهب **غسان** لمقابلة **فاطمة**، وعيناه تقدحان شراً! كان يتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه! فهو لم يكن يتوقع أن تتم خيانته بهذه الطريقة! لم يكن يتصور أن يكره النساء بسبب **فاطمة!** حالما تقابلا ولاحظتْ تعابير وجهه سألته: «هل أنتَ على ما يرام؟».

تجاهل سؤالها، وبرباطة جأش سألها: «كيف يسير عملكِ مع **حسان خيري؟**».

أربكها سؤاله، فعاد يسألها: «لماذا تبدين مرتبكة بعد سؤالي؟».

وهي تلوك الكلام: «لستُ.... مرتبكة، لقـ....».

قاطعها: «حسناً، أجيبي، كيف يسير عملكِ؟ هل تكسبين الكثير؟ وتستمتعين بالعمل؟».

بلعتْ ريقها قلقاً فأمر **حسان خيري** صار مفضوح للجميع، وأجابتْ: «إنني لا أعمل معه».

«لماذا؟ ألم يعجبكِ العمل؟».

«لم نتفق منذ البداية على الأجر».

«وماذا كان العمل؟ ماذا عرض عليكِ؟».

سكتتْ للحظات حتى تفكر في كذبة: «معمل خياطة، لديه معمل خياطة كبير تشتغل فيه الكثير من النساء».

تمتم وهو يصرّ على أسنانه: «بالطبع إنه يشغّل العديد من النساء».

لم تفهم ما قاله، فسألته: «ماذا تقول؟».

أغمض عينيه، وتنهد عميقاً حتى لا يفقد أعصابه، وأردف: «لا شيء. ولكن أليس من الغريب أن تختلفوا على الأجر؟ لأنه المفروض بكل بساطة منذ البداية لن يقبل بأن تعملين معه؛ لأنه لا خبرة لديكِ أبداً في الخياطة»

ردّتْ بنبرة مترددة: «هذا صحيح، وهذا ما جعله يعرض عليَّ راتب منخفض، لأنني في البداية سأتعلم، ولكنني....».

قاطعها: «ولماذا سيقوم بتشغيل امرأة ويضطر في البداية لتعليمها ولو براتب قليل؟».

وهي تشبك أصابعها العادة التي تقوم بها كلما كانت قلقة أو خائفة: «لقد قال بأنه يريد أن يعمل معي خيراً».

لحظتها لم يعد بإمكان **غسان** إمساك أعصابه أكثر**!** فقد رباطة الجأش، فأمسكها بشدة من كتفها وقال منفعلاً: «إلى متى ستواصلين الكذب**!؟** بالطبع ذلك الحقير تعمل معه الكثير من النساء، ولكن ليس في الخياطة».

وهي ترتجف: «ماذا تعني؟».

أردف بصوتٍ عال: «لا أعلم إن كنتِ تكسبين الكثير من العمل معه، ولكن الأكيد بأنكِ بالفعل تستمتعين بالعمل».

أبعدتْ عنه يدها، وسألته: «ما الذي ترمي إليه**!؟**».

أجابها وقد انتفختْ أوداجه مزمجراً: «لقد صرتُ أعلم يا محترمة ما تخفينه عني**!** أعلم بأن المدعو **حسان خيري** يعمل قواداً**!** وهذا يعني بأنكِ تعملين معه إما قوادة أو عاهرة**!** وبكلتا الحالتين أنتِ امرأة فاجرة فاسقة».. .

الفصل السادس

ذهبتْ **فاطمة لغسان** بعد ثلاثة أيام من شجارها اللفظي العنيف معه، وقد هدأ الاثنان بعد ذلك اليوم. فور لقائها به قالتْ: «أقسم لكَ بأنني لم أعمل ولو للحظة مع **حسان خيري**. لقد أخبرني بأنني سأشتغل في منزل مع نساء أخريات، وقال بأنه سيخبرني بنوعية العمل عندما نصل، ولكنني بعد أن شككتُ بأن نيته سيئة تراجعت عن كل شيء».

أخذ **غسان** نفساً عميقاً، وأردف بنبرة فيها نوع من الاشمئزاز: «لقد رأتكِ امرأة من حينا وأنتِ تخرجين من منزله، كنتِ تتبادلين معه الحديث وأنتما خارج المنزل، أي أنكِ لم تكوني مغصوبة، أو هاربة منه».

ردّتْ مدافعة عن نفسها: «أجل، لقد دخلتُ المنزل، ولكن والله لم أبقَ أكثر من دقيقة. كما قلتُ لكَ لقد أخبرني بأنني سأعمل في المنزل برفقة نساء أُخريات، ولكن عندما دخلتُ المنزل لم يكن هناك أحد، وأخبرني بأن النساء سيصلن بعد بعض الوقت، وبالتأكيد لم أكن لأبقَ مع رجل بمفردنا في منزل واحد، بالإضافة أنني لاحظتُ بأن نبرة صوته بها خبث! لذا على الفور خرجتُ من المنزل، فلحقني للخارج، ولكي لا أثير ضجة أخبرته بكل هدوء بأنني سأعود مع النساء الأخريات. غادرتُ وقد أخذتُ القرار بأنني لن أعود، لأنني كنتُ شبه متأكدة بأنه رجل لديه مغزى حقير».

أخذتْ مصحف كان موضوع بجوارها، ووضعتْ كفها الأيمن عليه، وأردفتْ: «أقسم بالله العظيم بأن هذا كل ما حدث، ولم أكذب في حرف واحد».

كان **غسان** يشعر بغصّة في قلبه؛ لأنه لن يعود بإمكانه الزواج من المرأة التي أغرم بها حد الجنون.

سألها: «لماذا كذبتِ سابقاً وقلتِ أن العمل كان في معمل خياطة، ولكن لم تتفقوا على الأجر؟».

أجابتْ: «لأنني رأيتُ بأن إخبارَكَ بالحقيقة قد يزعجكَ وحسب».

رمقها بحدة: «الكذب هو أكثر شيء أمقته».

بنظرة تأسف: «ربما أكون مخطئة في ذلك، لذا أعدكَ بأن لا أكذب عليكَ في أي شيء من الآن وصاعداً».

استطرد: «هل تعلمين بأن ذلك المنزل هو مكان للدعارة، وقد تم مداهمته بواسطة الشرطة، وتم القبض على **حسان خيري** والنساء اللواتي كُنّ فيه. **فحسان** ذاك قواد حقير، كان يُشغِّل النساء في ذلك البيت، ويأتِ بالزبائن الرجال لممارسة الفاحشة».

«في ذلك اليوم كما قلتُ لكَ شعرتُ بأن نيته خبيثة تجاهي، ولكنني لم أكن أتوقع أنه قواد، وأن ذلك المنزل منزل دعارة»

تابعتْ معاتبة إياه: «لقد أوجعتني كثيراً عندما وصفتني بالعاهرة**!** لو كنتُ بائعة هوى لما عشتُ أكثر حياتي في الذل والحاجة. لقد حافظتُ على جسدي عندما كنتُ وحيدة ولم يكن بجانبي أحد يسندني، فهل سأبيعه وأنتَ بجانبي**!؟**».

ردّ **غسان**: «ضعي نفسكِ مكاني، فلحظتها أحسستُ بأنني أختنق**!** عندما أعرف أنكِ كنتِ برفقة رجل فاسق. لقد تمنيتُ لحظتها بأن تنشق الأرض وتبلعني».

سألته: «والآن هل تصدق بأنني كما عرفتني شريفة طاهرة؟».

أجابها بكل ثقة: «بالطبع، **ففاطمة** التي أعرفها لا تخون أبداً».

أضاف ممتعضاً: «لكن هناكَ مشكلة كبيرة**!**».

«وما هي؟».

ردّ منكساً رأسه: «تلك المرأة التي رأتكِ نشرتْ الخبر بأنكِ كنتِ في منزل مع رجل، وقد تم القاء القبض على ذلك الرجل لأنه يدير المنزل للدعارة. وخبركِ الآن يعرفه كل الحي حتى عائلتي».

قالتْ وهي تختنق بالكلمات: «والآن أنا في نظرهم عا.... عاهرة».

أمسكها من كتفيها، وقال يواسيها: «المهم الحقيقة، وهو أنكِ أطهر نساء الأرض. أما الناس فلو كنتِ ملاكاً سيختلقون لكِ أي شيء حتى يتكلموا بالسوء عنكِ».

تابع بنبرة أسف: «أنتِ امرأة لن تتكرر في حياتي**!** أُحبكِ حُباً كبيراً مهما وصفته لن أوفيه حقه. مهما عشتُ....».

قاطعته متسائلة، وقد اغرورقتْ عينيها: «لماذا أشعر بأنكَ تودعني**!؟**».

أبعد يديه عن كتفيها، لم يستطع النظر إليها وهو يقول: «أنا أثق بكِ أكثر من ثقتي بنفسي، ولكن ألسنة الناس لا ترحم».

أمسكته من كتفيه وهي تقول: «كما قلتَ آنفاً حتى لو كنتَ ملاكاً فلن تسلم من ألسنة الناس. ولكن لأكن صريحة فمعكَ حق، من الصعب أن تعيش وحولك أناس يرون بأنكَ تزوجتَ عاهرة، لذا ما رأيكَ بأن نسافر من هذا المكان، ونتزوج. ننتقل لمكان جديد لا نخاف فيه من ألسنة أهله».

ممتعضاً: «الأمر ليس بهذه البساطة يا **فاطمة**، فقد كافحتُ هنا لسنوات حتى جعلتُ ورشة النجارة تشتغل جيداً، وكسبتُ الكثير من الزبائن. لذا سيكون من الصعب....».

قاطعته: «لقد كافحتَ حتى تصير نجار ماهر، لذا تستطيع أن تفتح محل في أي مكان آخر، وبمهارتكَ لن تحتاج للكفاح لأنكَ ستكسب زبائن جدد بسرعة».

عقّب على كلامها: «لنفترض بأن كلامكِ صحيح، ماذا بشأن أهلي**!؟** هل أتخلى عنهم بكل سهولة بعد كل ما قاموا به طيلة حياتي من أجلي**!؟** فهم لم يصدقوني أبداً عندما أخبرتهم بأنكِ بريئة، وقالوا حتى لو هم صدقوا فالناس لن تصدق، لذا يرون بأن زواجي منكِ أمر مفروغ منه، فهو أمر لا يمكن أن يتم».

كان يتحدث وهو يختنق بالكلام، فهو ينفصل عن امرأة من الصعب عليه أن يجد مثلها، من الصعب أن يهوى امرأة بعدها.

سألته برجاء وقد صار دمعها على جفنيها: «ألم تعدني بأنكَ ستكون ملاكي الأخير الذي لن أحتاج لملاك بعده؟».

متألماً: «الأمر ليس بيدي**!** لقد فكرتُ كثيراً ولم أجد حل**!** روحي تخرج مني لأنني سأنفصل عنكِ».

أبعدتْ يديها عنه، وبنبرة خيبة: «يبدو بأنكَ فعلاً فكرتَ كثيراً، وكانت النتيجة الانفصال عني، لذا لا داع بأن أحاول استجدائكَ للبقاء».

تابعتْ وقد بدأ دمع عينيها بالانهمار: «أتعلم لقد رأيتُ بأنني بالغتُ في خوفي عندما انهرتُ لعدم إيجادي عمل بعد موت صاحب محل بيع الكتب الذي كنتُ أعمل فيه، لأنني وجدتكَ بجانبي، فعاتبتُ نفسي لأنني بالغتُ في خوفي، ولكن الآن أدركتُ بأنني لم أبالغ بل إنني قصرتُ في خوفي**!** لأن امرأة مثلي سيصعب عليها إيجاد عمل وفي رقبتي ثلاثة أطفال، كان يجب بعد كل ما عانيته أن لا أثق ببقاء أي شخص بجواري مهما كان، لا يوجد ضمان ببقاء أحد معكَ للأبد».

كان **غسان** يشعر بأنه نذل؛ لأنه يتخلى عن حبيبته بسبب إشاعة يتناقلها الناس عنها، وهو متأكد بأنها بريئة منها براءة الذئب من دم يوسف. ولكن ليس بيده حيل، سوف يقاتل جميع الناس من أجلها لو كان مقطوع من شجرة، ولهاجر معها بعيداً، لكنه يملك عائلة، وليس بإمكانه التخلي عنهم بكل سهولة، وقد ضحوا لأجله كثيراً.

قال لها بنبرة واهنة: «لن أتخلى عنكِ تماماً، عندما تحتاجين لأي مساعدة، سأظل بجوارِكِ».

شعرتْ لحظتها بحقد تجاهه، لأنه يتخلى عنها بكل سهولة، لا يحاول حتى أن يظل معها قليلاً حتى يحاولا نفي الإشاعة، ليصير بإمكانهما العودة لبعض، كانت تريد أن يحاول معها وإن فشلا ستقوم هي بنفسها بتركه لأنها تحبه.

تجاهلتْ ما قاله، وأردفتْ: «هناكَ اختيار قد نندم عليه لآخر العمر! واختياري لكَ عن **عامر** قد يمثل ذلك! ما يغضبني الآن هو أنني اخترتكَ بدون أن أستغرق الكثير من الوقت في التفكير، لأنني كنتُ أثق بكَ ثقة لا حدود لها، كنتُ واثقة تماماً بأنكَ لن تتخلى عني ولو تخلى عني العالمين. لقد اخترتكَ لأن **عامر** كان قد تخلى عني يوماً حتى لو كان ذلك رغماً عنه، ولكنني كنتُ واثقة بعد معرفتي لكَ بأنه لن يرغمكَ شيء للتخلي عني مها كانتْ الظروف».

حاول الدفاع عن نفسه: «لو كنتِ مكاني هل ستخسرين أهلكِ الذين يحبونكِ وتحبينهم من أجلي؟».

أجابته بتعنيف: «لو كنتُ مكانكَ لن أتخلى عنكَ، أو على الأقل ليس بهذه السرعة، سوف أحاول كثيراً لإثبات براءتكَ، أما أنتَ لم تحاول حتى».

خلعتْ خاتم الخطوبة، وأخذتْ كفه ووضعتْ الخاتم فيه وهي تقول: «هذا آخر شيء يربطنا معاً، ولكن يجب علينا أن نلتقي مرة أخرى؛ وهي عندما أعيد لكَ المال الذي دفعته لي في مرض ابنتي، وأيضاً المال الذي كنتَ تعطيني إياه في الآونة الأخيرة».

ردّ عليها محتجاً: «ما الذي تقولينه!؟ سوف أظل دوماً بجوارِكِ، حاضراً بأي لحظة تحتاجين فيها لأي مساعدة. سأظل ملاكِكِ حتى لو لم نتزوج».

ردّتْ عليه بنبرة تحدي وكره: «لا أريد أن تبقَ بجانبي بداعي شعوركَ بالذنب أو الأسف تجاهي. لن أحتاج لشفقتكَ؛ لقد عشتُ حياة قاسية بائسة بشكل كاف يجعلني أتحمل أكثر من هذا بمفردي».

تابعتْ بنبرة مختنقة: «الرماد مادة غير قابلة للاحتراق؛ لأنه بكل بساطة احترق للنهاية، وهكذا أنا وقلبي وروحي أحرقتنا الحياة بما فيه الكفاية لنصير رماد، لذا لا تقلق عليَّ فلا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها».

كان يشعر بأن كلامها خناجر تخترق صدره! لم يكن يجد كلام يدافع به عن نفسه، يعلم بأنه سيندم كثيراً لأنه تخلى عنها. ولكنه يعلم بأنه لا خيار لديه، إشاعة كهذه مع اللبس الذي وقعتْ به **فاطمة** يجعل من المستحيل أن يصدق المجتمع بأنها بريئة.

أضافتْ مبتسمة ابتسامة شاحبة وقد عاود الدمع بالانهمار: «لن أستسلم أبداً، سأظل أُقاوم الحياة حتى أجد ملاكي. حتى إن متُ ولم أجده؛ يكفي بأن أمل لقياه جعلني أقاتل وأموت وأنا لم أرفع الراية البيضاء يوماً».

※ ※※

ذهبتْ **فاطمة** لمنزل صديقتها **فوزية**، وأخبرتها بما جرى معها مع **غسان**، وأن آخر شخص كانتْ تتوقع أن يتخلى عنها؛ هو أول شخص قام بذلك. فقالتْ لها **فوزية** تبرر تصرف **غسان**: «حتى نكون منصفين **فغسان** في موقف حرج للغاية**!** فمن الصعب أن يعارض عائلته في رفضهم زواجه بكِ، فأي عائلة سترضى أن يتزوج ولدها امرأة يراها كل الناس عاهـ....».

توقفتْ **فوزية** عن الكلام بعد أن لاحظت بأنها لتوضح بأنها ستقول كلام جارح، ولكن هذا لا يعني بأنها تصدقه: «أعتذر يا **فاطمة** أنا لا أقول بأنكِ كذلك، فأنا واثقة بأنكِ أشرف من الشرف، أنا فقط أوضح لكِ وجهة نظر الناس تجاهكِ، وبأن **غسان** ليس بيده شيء، فهو وأنا موقنين بطاهرتكِ، ولكن من سيجعل الناس يوقنون بذلك**!؟**».

كانتْ **فاطمة** تشعر بالقهر وهي تستمع لهذا الكلام.

تابعتْ **فوزية** تبريرها **لغسان**: «الناس بهذه الأمور لا تريد معرفة الحقيقة بل تريد أن تعظمها لتتسامر عليها، الناس دوماً تبحث عن فضائح الناس ويجعلون الأمر تسلية. وبكل صراحة بهذه الأمور لا يمكن أن نرمي كلام الناس وراء ظهورنا ونقول سينسون المسألة مع مرور الوقت، فلو كانت امرأة متهمة بوجود علاقة مع رجل، قد تستتر الفضيحة بزواجها من ذلك الرجل، أو حتى قيام أهلها بقتلها. ولكن في موقفكِ أنتِ متهمة بالدعارة، فلو قبلتْ عائلة **غسان** بزواجكِ من ابنها؛ سوف يتهم الناس تلك العائلة بالعهر لأنهم قبلوكِ بينهم. **غسان** لا يهتم بمصلحة نفسه حينما انفصل عنكِ، بل إنه يحمل على عاتقه خوفه على مستقبل عائلة بأكملها».

ردّتْ عليها **فاطمة**: «معكِ حق في كل ما قلتيه، لكنني لم أكن أتوقع من **غسان** أن يتخلى عني بهذه السرعة**!** كان يجب عليه أن يقف بجاني أطول مدة حتى نثبتْ بطريقة ما للناس بأنني بريئة من تلك الإشاعة الحقيرة، وإذا طال الزمن ووجدنا بأنه لا أمل لتبرئة نفسي حينها أنا بنفسي سأجعله يتخلى عني».

تابعتْ بنبرة خيبة: «**غسان** يعني لي الكثير يا **فوزية**، لذا خيبتي تجاهه كبيرة للغاية**!** كأنه تم طعن قلبي بسكين من خشب تمزقه قبل أن تقضي عليه».

واصلتْ **فوزية** الدفاع عن **غسان**: «قد يكون معكِ حق أنه أخطأ بتخليه عنكِ بسرعة، ولكن ربما كان عليه ضغوط كبيرة لم تترك له أي خيار. أحياناً الحقيقة ليستْ ثابته، فمثلاً من وجهة نظركِ قد ترينها شيء ما، ومن وجهة نظري أراها شيء آخر، وهذا لأننا نقف في مواضع مختلفة، أو لدى كل منا أوضاع وظروف مختلفة. ما أريد قوله هو أنكِ ترين بأن **غسان** أخطأ بحقكِ لأنه تخلى عنكِ بسرعة، ولكن ربما لو عرفتِ الظروف والوضع الذي هو فيه لرأيتِ بأنه لم يخطئ بحقكِ، أو بالأحرى لم يكن لديه خيار آخر لذا لن يكون بنظركِ قد أخطأ بحقكِ».

بدا وكأن **فاطمة** اقتنعتْ قليلاً بكلام صديقتها، بالإضافة أنه بكل الأحوال الإكثار بالنقاش حول هذا الموضوع لن يغير من نتيجة افتراقها عن **غسان**، لذا توقفتْ عن الحديث عنه، واستطردتْ قائلة: «أتعلمين يا **فوزية**، أحياناً أشعر بأنه كان من الأفضل لطفلتي لو ماتت**!** خصوصا وأنها ستحتاج الأدوية طوال حياتها».

نهرتها **فوزية**: «توقفي عن هذا الكلام**!** هل مصاريف طفلتكِ ثقيلة حتى تتمنين لو ماتت**!؟** مهما كانتْ المصاريف بعون الله سيتم تدبيرها، بالمقابل ربما لم تكوني....».

قاطعتها **فاطمة**: «أنا لا أقصد أن هذا الأفضل من هذه الناحية، بل أقصد أنها ولدت في أسرة فقيرة، فربما ستعاني ما عانيته طوال حياتي، وستعاني أكثر لأنه بالإضافة إلى ذلك تحمل مرضها».

ردّتْ **فوزية**: «استغفري الله، فكل شخص يأتِ برزقه، ثم إنكِ كنتِ في الدنيا بمفردكِ، أما هي فلديها أخان بجانبها».

فاطمة بنبرةٍ ساخرة: «لا ضمان في هذه الدنيا ببقاء أحد بجواركِ للأبد».

بنبرة امتعاض: «على كلامكِ هذا يجب أن تقوم كل عائلة فقيرة بوأد بناتها».

أخذتْ **فاطمة** شهيقاً وزفيراً لتهدئ من نفسها قليلاً، وأردفتْ: «لا تأخذي كل كلامي على محمل الجد، فوضعي الآن سوداوي للغاية، لذا قد أبالغ قليلاً».

بادلتها **فوزية** الابتسام قائلة: «قليلاً**!؟** بل لقد بالغتِ في تشاؤمكِ حتى وصل عنان السماء».

ثم أخذتْ **فوزية** نفساً عميقاً استعداداً لقول موضوع محرج للغاية لها، وبالمقابل سيكون جارح للغاية لصديقتها**!** ولكنها كانتْ مترددة**!** صار لسانها ثقيل فلم تستطع التحدث عن هذا الموضوع، لذا استطردتْ سائلة: «بالمناسبة يا **فاطمة**، لماذا لا تسافرين **لعامر** للعراق؟».

«هل تريدين أن أعود معتذرة **لعامر**؟ وأطلب منه أن أبقَ معه بعد أن تخلى عني **غسان**؟ وقد كنتُ من قبل رفضته بسبب **غسان**؟ وحينما يسألني عن سبب تخلي **غسان** عني ماذا أجيبه؟».

«لا داع بأن تخبريه الحقيقة، أخبريه مثلاً بأنكِ انفصلتِ عن **غسان** لأنكما اكتشفتما أنه لن تنجح علاقتكما. أو تقولي بأنكِ لم تتمكني من تجاوزه لذا قررتِ الانفصال عن **غسان** والعودة له».

جحظتْ عينيّ **فاطمة**: «هل تريدين أن أكذب عليه حتى أعيش في ظلال رفاهه وغناه؟».

تريد **فوزية** أن تبتعد **فاطمة** عنها كثيراً عن هذا المكان، أن تذهب لمكان تعيش فيه براحة نفسية قبل المادية، بالإضافة أن سفرها هذا سيريح قلب **فوزية** قليلاً؛ فيعز عليها أن تغض الطرف عن **فاطمة** كلما التقيا، لا تريد أن ترى صديقتها موجوعة ولا تتمكن من مواساتها حتى بالكلام.

«هذه كذبة بيضاء، فليس هناك داع أن تخبريه بالإشاعة التي كانت السبب في انفصالكِ عن **غسان**، لأنكِ بكل الأحوال بريئة منها. لذا نصيحة مني سافري إليه بأسرع وقت، ولن يصعب عليكِ العثور عليه؛ لأنه صار تاجر مشهور، لديه أفرع لمحلاته في أماكن متفرقة في **بغداد**».

«هل تضمنين أنه سيقبلني بكل بساطة وقد رفضته بعد سفره وبحثه الطويلان حتى وصل إليَّ؟».

«بما أنه سافر كل تلك المسافة وبحث عنكِ بعد أكثر من خمسة عشر عاماً، وبما أنكِ ستقولين له بأنكِ انفصلتِ عن **غسان** لأنكِ لم تستطيعي نسيانه بعد أن عاد لكِ؛ فبالتأكيد سيرحب بكِ بكل حُبّ».

عارضتْ **فاطمة** الأمر شكلاً ومضموناً: «لا يمكنني الكذب وأنا واثقة بأنه سيصدقني مستغلة الحُبّ، من الحقارة أن تستغل شخص لأنه يُحبّكَ».

«هذا....».

قاطعتها **فاطمة**: «توقفي عن محاولة إقناعي بهذا الأمر، فأنا لن أستغل شخصاً لأنه يُحبّني، إضافة إلا أن كرامتي أكبر من أن تسمح لي بأن أطلب من **عامر** أن أعود له. هناك حالة واحدة سأعود فيها إليه».

بنبرة فضول وترقب: «وما هي؟».

أجابتْ **فاطمة**: «أن يعود مرة أخرى، فأخبره بكل الحقيقة، فيقبلني رغم كل شيء».

زفرتْ **فوزية**، وأردفتْ: «وكأنكِ تقولين بأنكِ ستعودين له عندما يلد الثور! فهل تتوقعين أنه مرة أخرى سيقطع مسافات بعيدة حتى يحاول معكِ مجدداً، بعد أن رفضتِه بدون أي تفكير في المرة الأولى!؟ إضافة إلى أنها يرى بأنكِ صرتِ زوجة **عامر**!؟».

«معكِ حق، يبدو أمراً مستحيلاً، ولكن بالنسبة لي هذا هو الحل الوحيد، فلا يمكنني أن أكذب مستغلة الحُبّ. ولن أسافر إليه حتى أستجديه بداع الحُبّ، لا يمكنني العيش تحت جناح شخص يشفق عليَّ بداع الحُبّ الذي كان بيننا؛ بعد أن فضلتُ عليه شخص آخر قبل أن يتخلى عني هذا الشخص».

قالتْ **فوزية** مستسلمة: «يبدو بأن عليَّ أن أوفر طاقتي وأنا أحاول إقناعكِ؛ لأنكِ لن تقتنعي حتى لو جلستُ أحاول معكِ للصبح».

ابتسمتْ **فاطمة**، ثم أردفتْ: «يجب عليَّ أن أغادر».

استوقفتها **فوزية**، فلا يجب عليها أن تدعها تذهب قبل أن تخبرها بالموضوع الذي تريد إخبارها به منذ البداية، ولم تجد بعد الكلمات والطريقة والوقت المناسب لذلك. لكن مهما كان الأمر عصياً على لسانها يجب عليها أن تقوله **لفاطمة**، لأن هذه آخر فرصة ستستضيفها في منزلها.

«هناك أمر أريد أن أقوله لكِ قبل أن تذهبي».

«تفضلي».

كانت **فوزية** تشبك أصابع يديها، وشعرتْ بأن وجهها يشتعل! فقد كانت تشعر بالحرج مما ستقوله **لفاطمة**! لا تعرف العبارات المناسبة لذلك. تدعو بأن يلهمها الله بطريقة مناسبة لقول ما تُريد.

سألتها **فاطمة** بنبرة استغراب بعدما رأتها صامتة: «ماذا بكِ؟ ما الأمر الذي تريدين إخباري به حتى يجعلكِ مرتبكة هكذا!؟».

رأتْ **فوزية** بأنه لا مجال للتراجع، يجب أن تقول الكلام الآن. فأخذتْ نفساً عميقاً، وقالتْ: «لن أتمكن من استقبالكِ في المنزل، ولن أتمكن أيضاً من زيارتكِ».

شخصتْ **فاطمة** بعينها استغراباً: «لماذا؟».

حينها طرأتْ **لفوزية** كذبة مناسبة للوقت الراهن، فأجابتْ على الفور: «لأنني سأسافر مع زوجي والأولاد للقرية، ولا أعلم متى سأعود».

لحظتها أدركتْ **فاطمة** حقيقة الأمر، صديقتها تنفصل عنها كما انفصل عنها حبيبها. فابتسمتْ بحزن وهي تقول: «يا لي من غبية! كان يجب عليَّ أن لا أزوركِ

أصلاً، فالطبيعي أن يقوم زوجكِ بمنعكِ من استقبالي او زيارتي، لأنني صرتُ امرأة مشبوهة! سأضر بسمعة أي امرأة أزورها وأتحدث معها».

قالتْ **فوزية** ــبعد أن أدركتْ **فاطمة** الحقيقةــ بنبرة أسف: «سامحيني يا **فاطمة**، ليس بيدي حيلة، فقد هددني زوجي بالطلاق إن لم أقطع علاقتي بكِ. ولكن سوف أحاول بين الحين والآخر الاطمئنان عليكِ بطريقة ما».

ردّتْ **فاطمة**: «لماذا تطلبين مسامحتي وأنتِ لم تذنبي بحقي؟ بالفعل كان يجب عليَّ منذ البداية لأنني أعزكِ كثيراً أن أبادر بنفسي بقطع علاقتي معكِ؛ حتى لا أجعلكِ محرجة عندما تطلبين أنتِ ذلك مني. ففي الأخير أنتِ امرأة مثلي لا حول لكِ ولا قوة في مجتمعنا، نحن لسنا كالرجال تُغفَر خطيئاتهم الجنسية لأنهم بكل بساطة رجال، أما نحن فقط إشاعة تتعلق بالجنس تنهي مستقبلنا، إن لم يراق دمنا».

اختتمتْ حديثها قبل أن تغادر: «عديني يا صديقتي بأن لا تشعري أبداً بالذنب تجاهي، فلا ذنب لكِ في ما يجري، كل ما يجري فوق وخارج إرادتنا».

خرجتْ **فاطمة** مكسورة الروح، بخيبة تضاف إلى رصيد خيباتها الكبير. بلغ منها الأسى حد عدم قدرتها على إنزال دمعة! في روحها مِن التعب ما يكفي لمعانقة الموت! نظرتْ نحو السماء وبصوتٍ واهن تمتمتْ: «ارحمني إن كنتَ على كل شيءٍ قدير».

※ ※※

باتتْ **فاطمة** مدركة بأنه لم يعد لها مكان في الحي الذي تقطن فيه، يجب عليها أن تهاجر لأبعد مكان تستطيع الذهاب إليه، فالكل تخلى عنها، صارتْ منبوذة، ستتجنب النساء التحدث معها خوفاً على سمعتهن، ولكن بالمقابل سيلحقها الكثير من الرجال لأنهم يرونها فريسة سهلة يفرغون معها شهواتهم، لأنها بنظرهم عاهرة فقيرة لذا بعض المال ستجعلها تذهب معهم لفرشهم بكل سرور.

تتوجع كثيراً من نظرات الناس لها لأنها بريئة، فمنهم من يرمقها باحتقار، والبعض الآخر بشهوة لأنها بالنسبة لهم ليستْ سوى لحم رخيص، والبعض منهم يرمقها بشرر وتهديد لأنهم يرونها وسخ يجب إزالته. لقد أدركتْ فعلاً صدق مقولة: أن يُبرّأ ألف مذنب خير من أن يُتهَم بريء واحد.

صارت تحقد على الحياة، على المجتمع، لأنها تراه منافقاً، ظالماً، فلمجرد أنها امرأة فإشاعة تتعلق بالجنس كافية لتدمير سمعتها وحياتها. لن يحكم على الرجل في الأمور المختصة بالجنس إلا بإيجاد دليل دامغ واضح، وليس لمجرد إشاعة، وفي

الأخير عندما يتم إيجاد هذا الدليل فلا بأس فهو رجل يحمل عيبه، ستتم محاسبته قليلاً ثم نهاية ذلك الغفران. سوف يرضى رجل بتزويج ابنته لرجل كانت له سوابق جنسية غير شرعية، لأنه رجل، ولكن من المستحيل أن يزوج ابنه بامرأة لديها وحسب إشاعة تتعلق بالجنس.

كانتْ تمشي في أحد الأزقة، وفجأة جلستْ على ركبتيها، واتكأتْ بكتفها على الجدار، وشرعتْ تُجهِش بالبكاء! تبكي بحرقة شديدة، فقد أثقل همهما كاهلها بشكل مبالغ فيه هذه المرة. كانت تعاني وهي مستقرة في مكان عيشها، أما الآن يجب عليها أن تتحمل عبء السفر بعيداً وهي تحمل ثلاثة أطفال، ستبحث من جديد عن الاستقرار، وبدء حياة جديدة، وكل هذا ليس بالأمر السهل. لأول مرة تتمنى حرفياً الموت! لم تعد تخاف منه، صارتْ مدركة أنه لمن مثلها هو الحياة؛ فهو راحة من جحيم حياتها.

لأنها فقيرة، وحيدة، وفوق كل ذلك لأنها امرأة كان لزاماً عليها أن تعاني كثيراً في شتى سبل الحياة. منذ نعومة أظافرها وهي ما إن تخرج من خيبة حتى تدخل في أخرى، ما تلبث أن تنسى وجع حتى يغتص صدرها بوجعٍ آخر. عزاؤها الوحيد حلم مجيء ملاك يحميها، يُخلّصها من براثن حياتها.

لاحظتْ حالها شابة كانت تمر في الزقاق، فدنتْ منها، وسألتها: «ماذا حدث معكِ؟ هل أستطيع تقديم المساعدة؟».

التفتتْ نحوها **فاطمة** وبنبرة مخنوقة: «من المؤسف أن نتوقف عن الخوف من الموت. لقد يئستُ من حياتي! من مثلنا راحتهم أن يموتوا فور ولادتهم!».

تابعتْ وكلماتها تختلط بنشيج بكائها: «إن هذا طود من الوجع لا طاقة لي به، لقد تخلى عني الجميع، من لم اكن أتوقع يوماً ان يتخلوا عنّي؛ تخلوا عنّي».

وضعتْ الشابة يدها على كتف **فاطمة**، وحاولتْ تهدئتها: «هوني عليكِ، كلما ضاقتْ اقترب فرجها. اجعلي ثقتكِ بالله كبيرة».

ما قالته الشابة لم يُسكِّن الوجع والقهر اللذان يحتلان أعماق **فاطمة**، فما تحمله فاطمة في الوقت الراهن من خِذلان وأسى وخوف أكبر من أن تؤثر فيه بضع كلمات مواساة.

حدقتْ **فاطمة** في الشابة للحظات، ثم قالتْ بنبرة وجع: «هناك خيبة تنسينا كل الخيبات، هناك وجع ينسينا كل الأوجاع»

نظرتْ للأرض وأضافتْ ساخرة: «يا لتعاستنا! نتناسى ونتجاوز أوجاعنا بأوجاعنا».

أشفقتْ الشابة على حال **فاطمة**، واغرورقتْ عينيها وهي تسألها: «ما الذي حدث معكِ حتى تكونين بهذا الوجع**!؟**».

توقفتْ **فاطمة** عن البكاء، وأعادتْ نظرها للشابة ووجهها مبتل تماماً بدمعها، وأردفتْ: «هناك خيبة تفقدك شغفك، تُنهي صمودك، توقف محاولاتك، تهيئك للاستسلام».

مسحتْ وجهها بكفها، وتابعتْ: «ما الذنب الذي اقترفناه قبل ولادتنا حتى نُعاقب عليه طيلة حياتنا**!؟**».

ردّتْ الشابة وقد بدأ دمعها بالانهمار: «والله إن الله سيفرج همّكِ مهما كان، إنه ربنا لن يتركنا مهما أذنبنا».

واصلتْ **فاطمة** شكائها وقد عادتْ للبكاء: «حتى أحلامنا صارتْ عذاب**!** فنحن نهرب بالنوم من واقعنا، فتأتينا أحلامٌ تُحاكي واقعنا**!** فإلى أين ينبغي علينا الهروب**!؟** أحلامنا صارتْ تُحاكي أوجاعنا**!** فإلى أين سنهرب بعد ذلك من واقعنا**!؟** يبدو بأنه لم يعد لنا ملجأ من حياتنا الظالمة سوى ظلمة القبر».

احتضنتها الشابة وقد صارتْ تشاطرها البكاء رغم عدم معرفتها ما الذي يوجع **فاطمة**، ولكنها كانت مدركة بأنه وجع كبير فبكتْ معها وهي تواسيها: «اهدأي، مهما يكن همّكِ وغمّكِ ووجعكِ فسيزول بطريقة ما برحمة الله».

※ ※※

بعد بضعة أيام

قررتْ **فاطمة** البدء بترتيب أمورها للرحيل من المكان، فمكان كهذا سيكون جحيم عليها وعلى أولادها، فكيف سيعيش أبنائها في مكان في أي لحظة سيتم تعييرهم بأن أمهم عاهرة. لو كان على نفسها لتحمّلت كلام الناس عنها، ونظراتهم لها، ولكنها لن تتحمل أن ترى أعين أبنائها مكسورة. لا يوجد حل سوى أن تهاجر لتبني لها حياة جديدة بجوار أناس جدد، حتى لو كان ذلك يتطلب جهد وتضحية كبيران.

ذهبتْ لشراء بعض الخضروات والبقوليات، وعندما عادتْ للمنزل وجدتْ رجل يقف أمامه، فسألته: «هل تبحث عن شيء ما هنا؟».

أجابها: «إنني أبحث عن ربة هذا المنزل، لقد طرقتُ الباب ففتح لي طفل أخبرني أنها والدته، ولكنها ليستْ موجودة. لذا أنا منتظرها حتى تعود».

استغربت لوجود شخص يبحث عنها، تفحصت وجهه جيداً لكنها لم تستطع التعرف عليه، إنها أول مرة تقابله.

«ماذا تريد منها؟».

«إنها بحاجة لمساعدتي».

مستغربة: «في أي أمر تحتاج مساعدتكَ؟».

ردّ الرجل: «اعذريني يا سيدة، فهذا أمر سأخبر به صاحبة الشأن وحسب».

كانتْ مستغربة**!** فهي لا تتذكر أنها طلبتْ من أحدهم مساعدة. طرأ في بالها أنه ربما هذا أحد فاعلي الخير عرف بقصتها، وبمقاطعة الناس لها، فجاء لتقديم بعض الصدقات لها.

«حسناً، بإمكانكَ إخباري؛ لأنني صاحبة الشأن».

«هل أنتِ السيدة **فاطمة أحمد حسن؟**».

حركتْ رأسها بمعنى أجل. فأردف الرجل معرفاً عن نفسه: «أنا **حاتم يحيى،** المعروف **بأبي محمود،** هل تتذكرين هذا الاسم؟».

«عفواً، لا أتذكر».

«لقد جئتِ قبل مدة تبحثين عني، وأخبركِ أهل بيتي بأنني مسافر. لقد بحثتِ عني كي أشهد معكِ بأن الحاج **محمد شريف** أوصى لأولادكِ بثلث تركته».

لحظتها تذكرتْ **فاطمة** الأمر: «أجل لقد تذكرتُ، اعذرني لم أستطع التعرف عليكَ».

«لا داع للاعتذار، فكيف ستتعرفين عليَّ ونحن لم نتقابل من قبل. على العموم، أنا مستعد للذهاب معكِ لأشهد بأن جد أولادكِ أوصى لهم بثلث ثروته».

ابتسمتْ ابتسامة خائبة، وهي تتذكر أن معظم الأشياء التي تريدها تأتِ لها بعد فوات الأوان.

«لقد تأخرتَ كثيراً».

فسألها: «لماذا؟».

فأخبرته بما حدث، أن مال التركة كله صار مع عميّ أولادها في **بيروت**. فشعر بالأسف قائلاً: «يبدو بأنني بسبب خارج عن إرادتي تسببتُ في إضاعة حق أيتام**!**».

ردّتْ **فاطمة**: «لا تشعر بالذنب، فربما حتى لو كنتَ موجوداً حينها لن يتغير شيء».

«هل أستطيع تقديم أي مساعدة لكِ؟».

«شكراً لكَ».

ثم دلفتْ للمنزل، ولم يمر سوى نصف ساعة حتى سمعتْ الباب يُطرَق، فذهبتْ وفتحته، فإذا بها ترى رجل يبدو في أواخر الأربعينات، وهو في الحقيقة لم يصل للأربعين بعد، ولكن الشقاء الذي عاشه طوال حياته جعله يبدو أكبر من سنه.

«كيف أستطيع خدمتكَ؟».

ابتسم قائلاً: «رغم كل السنوات، وتغير تقسيمات وجهكِ كثيراً، إلا أنني متأكد بأنكِ **فاطمة**».

رمقته بحيرة وريبة: «هل نعرف بعضنا؟».

«ألم تتعرفي عليَّ**!؟**».

هزت رأسها بمعنى كلا. فقال: «صحيح بأننا لم نعش معاً إلا في فترة الطفولة، ولكن ألم تلاحظي اشتراكنا في علامات ظلم وشقاء حياتنا الجلية على محيانا؟».

حاولتْ التعرف عليه، لكنها فشلتْ. تشعر بأنه ليس غريباً عنها، ولكنها لا تستطيع تذكره.

ردّتْ ساخرة: «وكأن المشتركين في الشقاء قلّة».

ابتسم وهو يرمقها بنظرة رقيقة: «لقد اشتقتُ لكِ كثيراً يا **فاطمة!** لقد بحثتُ عنكِ كثيراً**!** عدة سنوات وأنا أبحث عنكِ».

بنبرة صوتٍ مرتبكة: «من أنتَ**!؟** لماذا تبحث عني؟ كيف تعرفني؟».

ردّ عليها سائلاً وقد أسبل أجفانه: «ألم يمر في حياتكِ شخص اسمه **حسن؟**».

لحظتها اغرورقتْ عينيها بدموعٍ حارة. ما إن نطق اسمه حتى تعرّفتْ عليه، رجعتْ ذاكرتها بالزمن كثيراً، عندما كانا طفلان؛ قبل أن يرحل عنهم. كانتْ قد فقدتْ أي أمل في لقائه.

أردف الرجل معرفاً نفسه: «أنا **حسن** يا **فاطمة، حسن أحـ...**».

وتوقف عن إكمال كلامه بارتماء **فاطمة** في حضنه**!** وهي تقول والدمع منهمر، بصوتٍ مخلوط بالبكاء: «لم أتوقع للحظة أننا سنلتقي يوماً».

※ ※※

التم شمل **فاطمة** بأخيها **حسن** بعد خمسة وعشرون عاماً، بعد أن هرب من المنزل وهو لم يتجاوز اثنا عشر عاماً. يومها غادر **حلب** واستقر في **إدلب**. اشتغل في البداية أعمال تتناسب وصغر سنه، فاشتغل في مخبز يوصل الخبز للبيوت، اشتغل مساعد لبائع خضروات، وغير ذلك من الأعمال. حينما بلغ من العمر ست وعشرون سنة انضم لثوار الغوطة لمقاومة الاحتلال الفرنسي، ولكن بعد عام واحد وقع في قبضة الفرنسيين، وقضى ست سنوات في السجن، حيث خرج من السجن بخروج القوات الفرنسية من **سوريا**.

حكى كل من **فاطمة** و**حسن** للآخر ما جرى معهم طوال حياتهم. فأردفتْ **فاطمة**: «يا لبؤسنا يا أخي**!** فلا أنتَ ولا أنا عشنا حياة هنيئة**!** بل إننا لم نعش حياة طبيعية».

أضافتْ بنبرة ساخرة: «أنا متأكدة بأننا لو قلنا للألم هيتُ لكَ، فلن يقول معاذ الله».

استطرد **حسن** بأسف: «لقد تفرقنا بسبب قسوة أبينا، لقد فقدنا عيش لحظات طفولتنا معاً».

تساءلتْ **فاطمة**: «ماذا فعلنا قبل ميلادنا حتى نعاني هكذا طوال حياتنا؟ فنحن نعاني منذ نعومة أظفارنا**!**».

تنهد **حسن**، وقال: «ما يؤلم كثيراً أنه ضاع الكثير من عمرنا ونحن لسنا معاً، كل واحد منا يعاني بمفرده، فتشارك الأحزان يهونها ولو قليلاً».

ابتسمتْ قائلة: «لا بأس، من الآن وصاعداً سنعاني معاً، أمامنا العمر كله، لذا... ».

ولكنها قطعتْ فجأة ما كانت تريد إكمال قوله**!** وأردفتْ منفعلة: «كلا، كلا، أنا أسحب هذه الجملة».

فغر **حسن** فمه متفاجئاً من انفعال أخته المفاجئ**!** فسألها مستغرباً: «ما الجملة التي تسحبينها**!؟**».

أجابتْ: «جملة "أمامنا العمر كله" أسحبها جملةً وتفصيلاً، اعتبرني لم أقلها مطلقاً».

مدهوشاً: «ولماذا؟ هل صارتْ هذه الجملة بذيئة هذه الأيام وأنا لا أعلم**!؟**».

ردّتْ: «كلا، ولكنني أتشاءم منها، لديَّ ذكريات سيئة معها. لذا أتوسل إليكَ أن تعتبرني لم أقلها، حسناً؟».

ابتسم قائلاً: «حسناً، حسناً، في وقت لاحق يجب أن تخبريني سبب تشاؤمكِ منها».

واستطرد سائلاً: «إلى أين تريدين أن نهاجر؟».

أجابته سائلة: «أجبني أولاً يا أخي بصراحة، هل تصدقني بأنني بريئة من تهمة العُهر؟».

شخص بعينيه وهو يُجيبها: «مهما فعلتِ من أمور فلا يحق لي أن أحاسبكِ؛ وأنا لم أكن بجوارِكِ؛ وأنتِ كنتِ وحيدة بلا حول ولا قوة».

وضعتْ كفيها على ركبتيه قائلة: «هذا منطق عادل للغاية، لكن رغم ذلك أقسم لكَ بأن أختكَ كافحتْ بشدة! نامتْ ليال كثيرة جائعة حتى لا تبيع جسدها، وقد نجحتْ بذلك».

وضع يده على رأسها وقال مبتسماً: «سوف نبدأ من جديد، لقد ولدنا اليوم وحسب، لذا ليس لدينا ماض نتحدث أو نسأل عنه».

ثم أخذ كفيها بين كفيه، واستطرد: «لا أملك ثروة حتى أعدكِ العيش برفاهية، ولكنني أعدكِ بأن أحفر الصخر حتى لا تنامين وأولادكِ جائعين».

عقّبتْ بحماس: «وأنا كذلك سأبحث عن عمل مناسب حتى أساعدكَ، حتى نتمكن من جمع بعض المال لتزويجكَ».

شاخص العينين: «هل تصدقين بأنني لم أفكر يوماً بذلك!».

ردّتْ عليه مبتسمة: «يجب عليكَ أن تفكر بذلك مهما كانتْ أوضاعكَ، فها أنا ذا أمامكَ عانيتُ كثيراً، ربما أكثر منكَ، وكرهتُ الحياة أكثر، رغم ذلك تزوجتُ مرتين، وكنتُ على شفى القيام بالثالثة، ولا يُستبعَد أن أتزوج مرة أخرى مستقبلاً».

علّق مازحاً: «أنتِ لا تُصدَّقين! هل لديكِ هدف بأن لا تموتي إلا وقد تزوجتِ عدد معين من الرجال!؟».

تبادل الاثنان الضحك، ثم نهضتْ **فاطمة** لتفتح النافذة، وأردفتْ تسأله: «أنتَ لن تتخلى عني أبداً، أليس كذلك؟».

أجاب: «للموت، لن أتخلى عنكِ حتى لو طلبتِ ذلك. ما عانيناه يكفي لأن يجعلنا نندمج للأبد، حتى تظل تواسي جراحنا بعضها البعض».

شعر بالعطش فقال لها: «هلاّ تُحضرين لي بعض الماء؟».

وضعتْ سبابة يدها اليمني تحت جفن عينها اليسرى، ثم نقلتها لتحت جفن عينها اليمنى وهي تقول: «من عيوني».

توجهتْ نحو المطبخ لتحضر الماء، وقبل أن تدخل للمطبخ، التفتتْ نحوه، رأته يلاعب طفلتها، وتمتمتْ شاخصة العينين: «لم يكن ليخطر ببالي بأنكَ ملاكي الأخير».

لم يسمعها جيداً، فنظر لها متسائلاً: «كأنني سمعتكِ تقولين ملاذي الأخير!؟».

ابتسمتْ ابتسامة عريضة وهي تقول: «أجل، أنتَ ملاذي الأخير».

النهاية.. .

BM A

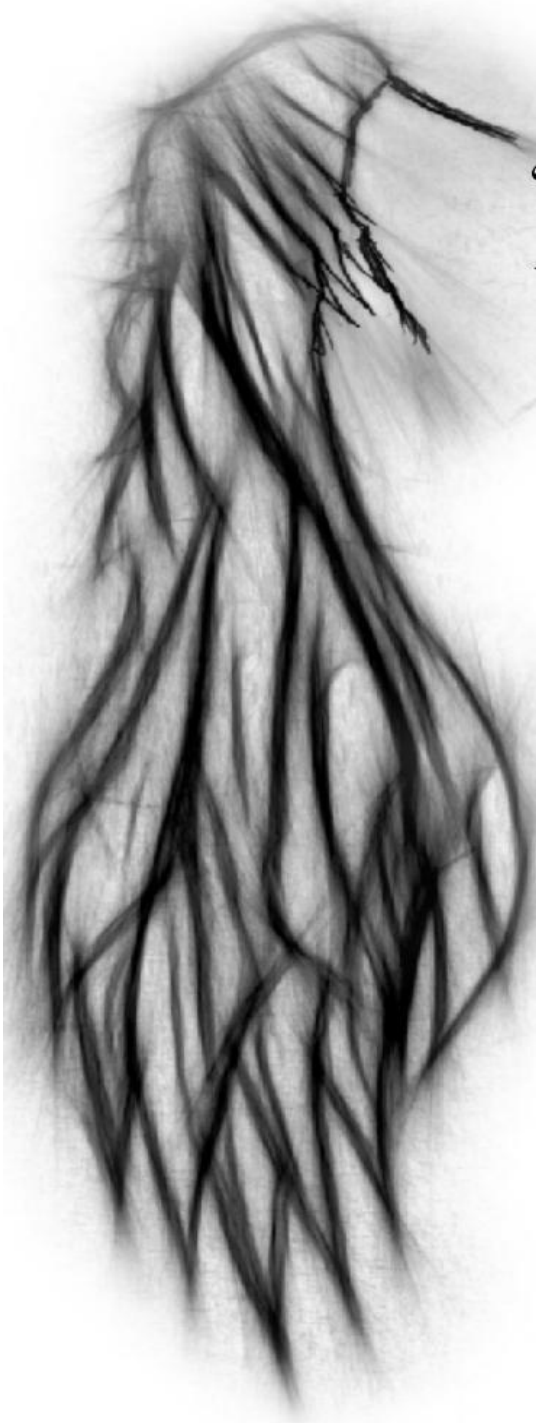

كانتْ تمشي في أحد الأزقة، وفجأة جلستْ على ركبتيها، واتكأتْ بكتفها على الجدار، وشرعتْ تُجهِش بالبكاء! وبكلمات تختلط بنشيج بكائها اشتكتْ:«إن هذا طود من الوجع لا طاقة لي به».

شعرتْ بأنها في مدينة شاحبة يجتاحها وباء الألم، سعادتها صارتْ في عداد الموتى، وآمالها وأحلامها في صفحة المفقودين بلا عودة.

لأنها فقيرة، وحيدة، وفوق كل ذلك لأنها امرأة كان لزاماً عليها أن تعاني كثيراً في شتى سبل الحياة. منذ نعومة أظافرها وهي ما إن تخرج من خيبة حتى تدخل في أخرى، ما تلبث أن تنسى وجع حتى يغتص صدرها بوجعٍ آخر. عزاؤها الوحيد حلم مجيء ملاك يحميها، يُخلّصها من براثن حياتها.

باسم فضه

الملاك الأخير